

دار الفيصل الثقافية



المنظومة الذهبية

للإمام زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي

شرح وتحليل

مهنا عبد الله أبا الخيل

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ/٢٠١١م

المنظومة الذهبية

لامية زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي

شرح وتحليل

مهنا عبد الله أبا الخيل

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

ح) دار الفيصل الثقافية، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن الوردي، عمر بن مظفر

المنظومة الذهبية/ عمر بن مظفر ابن الوردي؛ مهنا أبا الخيل.- الرياض، ١٤٣٢هـ

١٩١ص؛ ١٧ × ٢٤سم

ردمك: ٤-٤٨-٦٧٧-٩٩٦٠-٩٧٨

١- الشعر العربي - نقد - عصر المماليك. أ. أبا الخيل، مهنا (محقق). ب. العنوان

ديوي: ٨١١,٨٢٠٠٩ ١٤٣٢/٦٠٦٨

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٦٨

ردمك: ٤-٤٨-٦٧٧-٩٩٦٠-٩٧٨

مراجعة وتدقيق

إبراهيم باجس عبدالمجيد

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تقديم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على خاتم النبيين، وعلى الخلفاء الراشدين، وأمهات المؤمنين، والصحابة كلهم أجمعين، وبعد :

قرأت هذا السفر الجميل المسمى : « **المنظومة الذهبية لابن الوردي: شرح وتحليل** »، الذي كتبه الأستاذ/ مهنا بن عبدالله أبا الخيل، فوجدته يتمتع بجمال الأسلوب، ونصاعة العبارة، مع حُسن الترتيب والسياق، إلى جودة الأفكار والاختيارات.

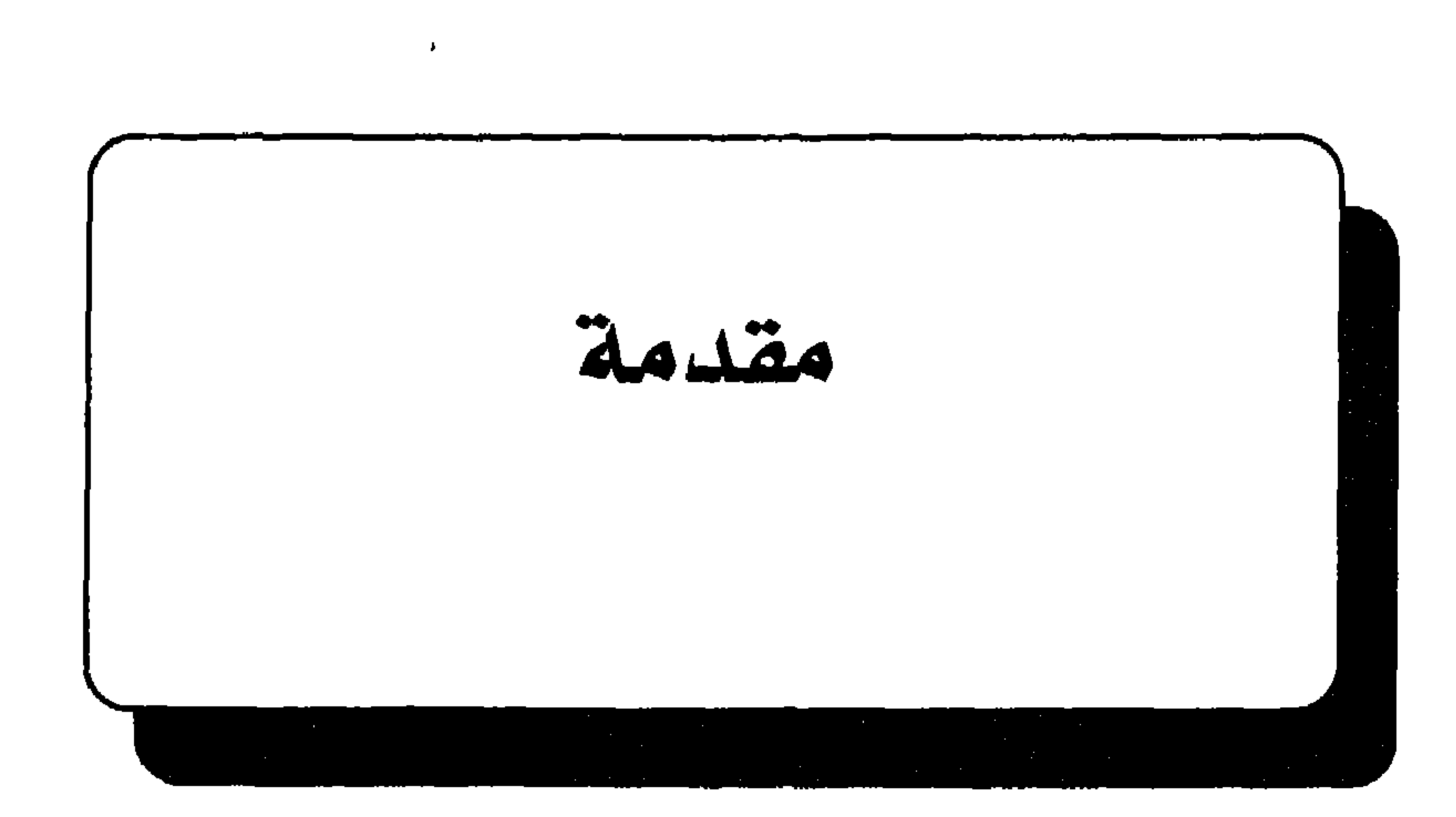
لقد درس عصر ابن الوردي، وعرض لحياته بشيء من التفصيل، واستشهد لذلك بأشعاره، ودرس كتبه، وحلل نفسيته وظروفه، ثم شرح القصيدة شرحاً موضوعياً، جامعاً المعنى إلى نظيره، مستشهداً بالقرآن والحديث والشعر الجميل، وأقوال الأئمة والعلماء. فغدا هذا الكتاب ملائماً للشباب خاصة، ولغيرهم كافة، في قرب تناوله، ومتانته وجزالته، ونصاعة أفكاره، جزى الله كاتبه كل خير.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د. سلمان بن فهد العودة

١/ ٦/ ١٤٣٠هـ



مقدمة

ما إن بدأت في تدبر معاني هذه القصيدة حتى وجدتُني مدفوعاً إلى قراءة سائر شعر صاحبها. وجرَّني ذلك إلى دراسة حياة ابن الوردي موصولةً بعصره، وشدَّما فوجئت بأن العصر الذي عاش فيه ابن الوردي، وما أحاط به من ظروف وملابسات صورةٌ قريبة الشَّبَه بما نحياه اليوم، وتحياه أمتنا؛ فكما أن أمتنا اليوم مستهدَفة للمطامع التي تتلوَّن كل يوم بلون جديد، وهي في كل ما تتلون به تضع نُصب أعينها تفتيتَ وحدة هذه الأمة، وطمس تراثها الإسلامي والعربي، الذي هو قوام حياتها وشخصيتها، فكذلك كانت أمة الإسلام في عصر ابن الوردي؛ إذ أحدقت بها الأخطار من كل جانب، متمثِّلةً في الغزو التتري المخرِّب من ناحية، وفي القوى الصليبية التي كانت وما تزال جاثمةً على بقاع عزيزة من أرض الشام من ناحية أخرى. وقد وحَّد العداء للإسلام بين هؤلاء وهؤلاء، وكان على الأمة الإسلامية أن تواجه كل هذه الأخطار بالشخصية المتماسكة أولاً، ثم بالقوة العسكرية ثانياً. ولعل في ذلك ما يفسر حرص ابن الوردي وأقرانه من الأدباء والعلماء على الحفاظ على الشخصية الإسلامية؛ سواءً بصون التراث، أم بلفت هذه الشخصية إلى ما ينبغي أن تتحلَّى به من أخلاق تحفظ لها قوتها وصلابتها.

وإذا كنَّا اليوم في حاجة إلى ما يحفظ للشخصية الإسلامية قوتَها في مواجهة ما يُحدق بها من أخطار، وما يترصَّدها من مطامع، فإن السبيل إلى ذلك - فيما أرى - أن نصل حاضرَ هذه الأمة بماضيها؛ فالأمر لا يصلح إلا بما صلَح به أولُه.

لذلك رأيت لِزاماً عليَّ أن أقدم هذِهِ القصيدة لشبابنا معروضةً في إطار موسَّع، ينضمُّ إليها ما يأتلف معها، ويوضح ما فيها من أمور تتصل بالعقيدة، ويلفت إلى ما لابَسَها من ظروف الشاعر وظروف عصره.

ولكي تتم الفائدة، رأيت أن أقدم بين يدي القصيدة بدراسة للشاعر وأحوال عصره، ونبذة عن الفن الشعري الذي تنضوي تحته؛ وهو «الشعر التعليمي». ثم أسرد في هذه الدراسة مقتطفات من شعر الشاعر، لعلها تكون حافزاً للقارئ على الرجوع إلى ديوان ابن الوردي والانتفاع به.

واللهَ نسأل أن يكون عملُنا خالصاً لوجهه.

مهنا عبدالله أبا الخيل

الشاعر وعصره

هو زين الدين عمر بن مظفَّر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس بن الوردي . ولد بمعرَّة النعمان، ونشأ وأقام بحلب، ولذلك يُوصف بالمعرِّي الحلبي . وكان من كبار فقهاء الشافعية في عصره(*) .

ولا ندري سنةً محددةً لميلاده، وربما كان هذا شأن كثير من أعلام العصور الماضية . وكل ما ندريه أنه توفي في الطاعون الذي اجتاح بلاد الشرق، وعُرف في التاريخ باسم الوباء الأسود، وكان ذلك في عام ٧٤٩هـ، ويقال : إن ابن الوردي حينئذ كان قد أناف على التسعين . ومن هذا نستطيع أن نقول : إنه ولد – على وجه التقريب – في حدود سنة ٦٦٥هـ.

ويرجِّح لدينا قولَ من قال : إنه أناف على التسعين بعضُ شواهدَ من شعره يشكو فيها الكِبَر والوهن، ويترقَّب الموت في رجاء مؤمن، وذلك

(*) انظر ترجمة ابن الوردي في :

– طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، ط المطبعة الحسينية، جـ٦ ص٢٤٣، ٢٤٤ .

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط البابي الحلبي، ١٣٨٤هـ، ص٢٢٦، ٢٢٧ .

– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني، ط دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد – الدكن، ١٣٤٩هـ، جـ٣ ص١٩٥ .

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، ط وزارة الثقافة المصرية، جـ ١٠، ص٧٤٩ .

– بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس.

– إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباخ.

في مثل قوله:

قــــد مــــات أصـــغـــرُ منِّي
سِـنًّا وأكـــــــبـــــرُ منـي

لـم يـبـقَ إلا رحــــــيـلـي
يـا خــــالِقي فــــاعْفُ عنِّي

ويبدو أنه توقَّع أنه لن يفلت من هذا الطاعون أو الوباء الأسود، فقال:

ولست أخافُ طاعوناً كغيري
فما هو غيرُ إحدى الحسنيينِ

فإن متُّ استرحتُ منَ الأعادي
وإن عشتُ اشتَفَتْ أذُني وعيني

ويقال: إن هذين البيتين آخرُ ما قال ابن الوردي قُبيل موته.

وكان ابن الوردي يمتُّ بصلةِ نسب إلى الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يعتز بهذه الصلة أيَّما اعتزاز، مع أنه كان لا يميل إلى الفخر بالنسب؛ ففي قصيدته التي نحن بصددها يقول:

مع أني أحــــمــــدُ اللهَ على
نــســـبي إذ بأبي بكر اتَّصَلْ

ويقول في أخرى:

هذا وبالصِّدِّيق لي نســـبةٌ
ووصلة تُعـــرَفُ كــالنجمِ

أعـدَدْتُها للحشر ذُخراً ولا
أبغي بها فخراً على خصمي

يا ثانيَ المختارِ في غارِهِ
وقبرِهِ الزاكي وفي الحُكمِ
لا تُخْلِني مِنْ لحظاتٍ فَلي
أعداءُ سُوءٍ يكرهون اسمي

وبلغ من اعتزازه بهذه النسبة أن سمَّى ابناً له أبا بكر، وبنتاً من بناته عائشة؛ يقول:

جدِّي هو الصِّدِّيق واسمي عمر
وابني أبو بكر وبنتي عائشهْ

ولم تحدثنا كتب التراجم عن حياة ابن الوردي الخاصة، ولكنا نستطيع أن نستنبط بعض جوانب هذه الحياة من شعره؛ فهو يحدثنا مثلاً في بعض أشعاره أنه كان سابعَ ستةٍ من الإخوة تعقَّبهم المرض، فمات منهم ثلاثةٌ، وبقي هو وثلاثة، وذلك إذ يقول:

وخلَّفَنا والدي سبعةٌ
مِنَ الولد مربعُهم مُمْرِعُ
رأى الدهرُ سبعَ شُموسٍ لنا
فعانَدَنا فإذا أربعُ
وكان توَّجهم مُوجعاً
ولكن فرَّقَتْهم أوْجُعُ

ونفهم من شعره أيضاً أن أحد هؤلاء الإخوة مات بمرض «السل»؛ وذلك إذ يقول:

بِـعِـلَّـةِ الـسُّـلِّ تُـوفـي أخــي
وكـان في الأسـيـافِ مـعـدودا
يا مُـغْـمَـداً في التُّـرْب مِنْ بيننا
أبْكِيك مَـسلُولاً ومـغـمُـودا

ويبدو أن ابن الوردي كان إنساناً مبتلًى، فلم يقتصر الأمر على فقده لإخوته، ولكن الموت يتعقَّبه، فيختطف منه ابنته «لؤلؤة» في مقتبل صباها، فيبكيها في شعره بعدد من المقطوعات الدامعة، نُحِسُّ فيها ألم الفقد، ووَجْدَ الأب المكلوم، يقول:

وتـنظرُ في القُـبـور فـلا تراني
وأنظرُ في القـصـور فـلا أراها
فليت البـاكـيـاتِ بكلِّ أرضٍ
جُـمِـعْنَ لهـا فنُحْنَ على صباها

ويتعجب من ضَنِّ الموت بها عليه، وهو الإنسان الفاضل، بينما غيره من اللئام ممتَّعون بأولادهم، يقول:

أيا مـوتُ رفـقـاً على حُـسْنِها
فـقـد بلغتْ روحُـهـا التَّـرقُـوَهْ
تـركـتُ جـواهرَ عند اللِّئـامِ
وتحـسُـدُ مـثلي على لُؤْلُؤَهْ

ويُحس أنه حين فقدها فقد معها الشباب، فيقول:

مضتِ الحبيبةُ والشَّبيبةُ جملةً
وَيْلاه مِنْ فَـقْـدِ الصَّـبِيَّـةِ والصِّـبا

يارب ذُقتُ الحـادثاتِ فلم أجِـدْ
شـيئـاً أمـرَّ مِنَ الفـراق وأصـعبـا

ويرميه الموت بسهم آخر، فيختطف ابناً آخر من أبنائه في عمر الطفولة، فيبكيه قائلاً:

أَمُـفـارقي طفـلاً أشَـبْـتَ مـفـارقي
إذ كنـتَ مـحـبـوباً إلى مَـحْـبـوبي
فـجَّـرت أنابيبَ الـدمـاءِ عـواليـا
كـالرُّمح أُنبـوباً على أُنبـوبِ

ولا يترك الموتُ ابنَ الوردي حتى يبتليَه مرة ثالثة في زوجته، وبفَقْده لها نراه يفقد معنى السكينة، ويفتقد دِفْءِ البيت والقرينة، ونفهم ذلك من قوله:

إذا مـا زوجـةُ الإنسـان مـاتـت
فـمـا بقَـيتْ لمسكنِه سكينهْ
وكـيـف يُطيـعـه نَظْمٌ ونومٌ
ولا بيْـتٌ لـديـه ولا قـريـنَهْ

وفضلاً عن هذه المصائب المتلاحقة، يبدو أن ابن الوردي كان مقتَّراً عليه في رزقه كما نشم ذلك من قوله:

إذ لُـمْـتَ حَظِّي فـلا تَلُمْـني
فـإنَّ لـومـي لـه بحَـقٍّ
للضِّـدِّ رزقٌ بـلا حـسـابٍ
ولـي حـسـابٌ بغـيـرِ رزقِ

ولفظ «ضد» كان يحلو لابن الوردي أن يستخدمَه، معبِّراً به عن غيره ممن كان لا يماثله في العلم والفضل.

فإذا أضفنا إلى ذلك أنِ الرجل كان جُلُّ ولده من البنات، أدركنا مدى المعاناة التي كان يعانيها في حياته الخاصة، انظر إليه يشكو كثرة بناته:

لولا بناتي متُّ مِنْ شوْقي إلى
موت أراح به مِنَ الأشرارِ
يا ربِّ أشكو مِنْ بناتِيَ كثرةً
وأبو البناتِ يخاف ثوبَ العارِ
واللهُ يرزُقني بهنَّ وإنَّما
أرجو لهُنَّ السّترَ مِنْ ستَّارِ

وثمة أمر آخر يصل بمعاناة ابن الوردي إلى ذروتها؛ ذلك هو إخفاقُه في منصب القضاء؛ فقد استخفَّ به الشهود حتى آثرَ في النهاية أن يعتزل[1].

وربما كانت هذه المعاناة بعضَ الأسباب التي دفعت بابن الوردي إلى إيثار العزوف عن الحياة العامة، وتفضيله الخمولَ كما يقول، وتقول بعض الأسباب؛ لأن هناك أسباباً أخرى تتصل بعصر الشاعر كان لها أثرها أيضاً في إيثار الشاعر لهذا العزوف عن الحياة العامة.

– ٢ –

وقد عاش ابن الوردي في ظل الدولة المملوكية التي كانت تسيطر على مصر والشام آنذاك. وأصل المماليك – كما نعلم – طبقة الأرِقَّاء، اشتراهم

(١) انظر الدرر الكامنة جـ٣، ص١٩٥، والنجوم الزاهرة، هامش جـ١٠، ص٧٤٩.

سلاطين بني أيوب، ونشَّؤوهم تنشئةً عسكريةً، وظلت شوكتهم تَقْوى حتى استطاعوا انتزاع الحكم من بني أيوب بعد موت الصالح نجم الدين أيوب، وكان معبرهم إلى ذلك «شجرة الدر» زوج السلطان الصالح، التي نصَّبت نفسها على العرش عقِبَ موت زوجها، ثم تزوجت - إزاء سخط العامة - بعز الدين أيبك، وسلَّمته العرش، فكان أولَ سلاطين المماليك. ومنذ ذلك التاريخ - وهو سنة ٦٤٨هـ - بدأ حكم المماليك، وقامت دولتهم.

ورغم أن المماليك كانوا جنسياتٍ مختلفةً، فإن العامة كانوا يلقِّبونهم بالأتراك؛ لغَلَبَة الجنس التركي بينهم.

وفي محاولة من المماليك لإضفاء الشرعية على حكمهم، عملوا على إحياء الخلافة العباسية بمصر بعد أن سقطت في بغداد، فأتى الظاهرُ بيبرس بالأمير العباسي أحمد بن الظاهر، وأقامه خليفةً في مصر، ولقَّبه بالخليفة المستنصر، ولكنه كان خليفةً لا حول له ولا طَوْل؛ إذ كانت كل السلطة في يد «بيبرس»، ثم في يد مَنْ تعاقَبَ على كرسي السلطنة من بعده.

وقد عاصر ابنُ الوردي في حياته ستة عشر سلطاناً من سلاطين المماليك، بدءاً بالظاهر «بيبرس»، وانتهاءً إلى السلطان الناصر أبي المحاسن حسن(١).

---

(١) هم على الترتيب:
الظاهر بيبرس - السعيد بركة - العادل سلامش - قلاوون - الأشرف خليل - الناصر محمد - العادل كتبغا - حسام الدين لاجين - الناصر محمد «للمرة الثانية» - سيف الدين أبو بكر - الأشرف كجك - شهاب الدين أحمد - الصالح علاء الدين - الكامل شعبان - المظفر حاجي - الناصر أبو المحاسن حسن.

ولا نستطيع - بأي حال - أن نغُضَّ من شأن المماليك، وأن نقلل من جهدهم في حماية ديار الإسلام؛ فلهم الفضل في صد خطر الغزو المغولي المدمر الذي اجتاح ديار الإسلام في حملات شرسة متعاقبة، ولهم الفضل أيضاً في تصفية الجيوب الصليبية التي كانت ما تزال في منطقة الشام، وكانت تتعاون مع المغول بصورة سافرة، يوحِّد بينها العداء للإسلام.

ولكي نتمثل هذه المهمة التي قام بها المماليك، فلا بد أن نعلم أن هذه الهجمات الشرسة التي كان يقوم بها المغول، ويعاونهم الصليبيون في كثير منها، كانت تستهدف الإسلامَ في أساسه، ولم تكن الصيحة التي أطلقها «قطز» في «عين جالوت» - إذ صرخ «واإسلاماه» - إلا تجسيداً لجوهر القضية التي يصطرع حولها المتحاربون، والتي ظلوا يصطرعون حولها طوال هذا العصر، فالحرب الدائرة كانت حرباً بين التوحيد متمثلاً في جيوش الإسلام، وبين الشرك متمثلاً في وثنيَّة المغول، وتثليث حَمَلَة الصليب.

من أجل ذلك اتَّسمت هجمات المغول بالشراسة والقسوة، وأخذت تخرِّب وتدمر بلا رحمة، تريد أن تطمس كلَّ أثر من آثار الإسلام، وأن تقضي لا على الإنسان المسلم فقط، ولكن على كل ما يشكِّل فكر هذا الإنسان من علوم وحضارة. ويكفي أن نسوق إليك هذه الأبيات التي قالها ابنُ العديم، مصوِّراً ما صنعه التتار بحلب في إحدى هجماتهم؛ إذ أراقوا الدماء، وعبثوا بالمقدَّسات، وهدموا المساجد، ومزقوا المصاحف، وبعثروا أوراقها المطهرة، وجرُّوا شعور النساء، واسمع له:

أتَوْها كأمواجِ البحارِ زواخراً
ببيضٍ وسُمْرٍ والقَتامُ مخيّمُ

فلو حلبُ البيضاء عاينتَ تُرْبَهَا
وقد عَنْدَمَ الفِضِّيَّ من تُرْبِها دمُ
وقد سُيِّرتْ تلك الجبالُ وسُجِّرت
بهن بحارُ الموت والجو أقتمُ
وقد عُطِّلت تلك العِشارُ وأذْهلَت
مراضعُ عما أرضعت وهي هُيَّمُ
فيالك مِنْ يومٍ شديدٍ لغامُه
وقد أصبحت فيه المساجدُ تُهْدَمُ
وقد درست تلك المدارس وارتمت
مصاحفُها فوق الثرى وهي تُهْضَمُ
وقد جُزِرَتْ تلك الشُّعورُ وضُمِّخَتْ
وجوهٌ بأمواهِ الدِّما وهي تُلطَمُ
وكل مَهاةٍ قد أهِينَتْ سَبيةً
وقد طالما كانت تُعَزُّ وتُكرمُ
تنادي إلى مَنْ لا يجيب نداءها
وتشكو إلى مَنْ لا يرِقُّ ويرحَمُ(١)

---

(١) عندم: صبغه بالعندم، وهو لون أحمر. العشار: جمع عُشَراء، وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر، وهي أنفس ما تكون عند أهلها. ومعنى تعطيلها: تركها مسيبة. وسُجِّرت البحار: امتلأت وفجر بعضها إلى بعض، وقيل: ملئت نيراناً. واللغام: الزبد الذي يرميه الجمل من فمه، ويوم شديد اللغام صورة تكنى عن الهول الشديد. ومعظم صور الأبيات أخذها الشاعر من سورة التكوير؛ كأنه أراد أن يقرن بين هذا اليوم في حلب وبين مشهد القيامة في سورة التكوير.

تصدى المماليك لهذا الخطر الداهم، وكان لهم الفضل في دحره وتعقُّب فلوله، وبرز من سلاطينهم في هذا المضمار «الظاهر بيبرس»، و«الأشرف خليل»، و«المنصور قلاوون»، وابنه «الناصر محمد».

غير أن المماليك – في مقابل هذا – عاشوا طبقةً مستعليةً على الشعب، وأسرفوا في المظالم، وكثُر في عهدهم السلب والنهب، وأثرى سلاطينُهم وأمراؤهم، وعاشوا في بذخ وترف، بينما الناس يعانون من شظف العيش، وتفتك بهم الأمراض والأوبئة، وساد جوٌّ من الفساد، فانتشرت الرشوة[1] وأصبحت مناصبُ الدولة تُباع وتشترى، بما في ذلك منصب القضاء، الذي يُفترض فيمن يليه الورعُ والنزاهة.

والقارئ لديوان ابن الوردي يجد إشاراتٍ كثيرةً لهذه الظاهرة فيما يخص رجال القضاء، وهو وإن كان قد آثر اعتزال القضاء إثر تجربته الأليمة فيه، فإنه ظل يلمح في أشعاره إلى من بذل وتولى، وإلى من اشترى المنصب النزيه بالرشوة، وظل يعلن سخطه على بعض رجال القضاء، ويسخر من ميْلهم عن العدل إرضاءً لهذا أو ذاك من السلاطين والأمراء، وسنعرض عليك بعضاً من هذه الأشعار حينما نعرض لرأيه في تولِّي منصب القضاء في القصيدة موضوع هذا العمل.

على أن هذا الحكم لا ينبغي أن يؤخذ على عمومه، ولا ينبغي أن نأخذ قول ابن الوردي – وقد علمنا مكَمن دائه – على أنه تصوير لكل رجال

---

(١) انظر كتاب البذل والبرطلة زمن المماليك، وهو دراسة عن الرشوة في العصر المملوكي، وحصر لها، وإحصاء بالمبالغ والمرتشين، وصاحب هذه الدراسة هو الدكتور أحمد عبدالرازق. والكتاب ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.

القضاء، صحيح كان منهم من مال مع الهوى، ولكن كان منهم أيضاً من تحرَّى العدل، وصمد أمام ترغيب السلطة وترهيبها، ومنهم عز الدين بن عبدالسلام، الذي تصدى لبيبرس، وردَّ مظالمه، حتى إن بيبرس لم يسترح إلا حين مات هذا القاضي، وقال: «اليوم تمَّ لي سلطاني».

ومن أمثال ابن عبدالسلام أيضاً كان ابنُ دقيق العيد، وتقيٌّ الدين بن بنت الأعَزِّ.

وينبغي هنا أن نشير إلى جهود علماء هذا العصر وإلى جهادهم؛ فإذا كان المماليك قد قاموا بواجب الدفاع العسكري عن ديار الإسلام، وتصدَّوْا للجيوش المغيرة، فإن العلماء قاموا بعمل لا يقل عن هذا في الدفاع عن تراث الإسلام والمسلمين، وفي صون الفكر الإسلامي والشخصية الإسلامية، وقد أسلفنا أن هذه الهجمات المغيرة لم تكن تستهدف الإسلام جيوشاً ودياراً، وإنما كانت أيضاً تستهدفه حضارةً وفكراً، وأوضحُ دليلٍ على ذلك إغراقُ هذه الجيوشِ المغيرةِ لمكتبة بغدادِ، والعبور عليها بالخيلِ في نهر دجلة، وليست هذه الكتب التي أُغرقت إلا حضارة الإسلام وفكره، وجهود علمائه على مدى قرون سبعة.

من أجل هذا نهض علماء هذا العصر بعبءِ جَمْعِ هذا التراث وحياطته، فانكبُّوا على تسجيل الفكر الإسلامي من جديد، وظهرت الموسوعات التي تجمع إلى جهود السابقين جهود المعاصرين؛ مثل «نهاية الأرب» للنويري، و«مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري، و«صبح الأعشى» للقلقشندي. هذا فضلاً عما وضعوه من شروح، وما قاموا به من تبسيطات واختصاراتٍ لجهود القدماء.

ونظرة سريعة إلى مؤلفات ابن الوردي وحدَه توضِّح للقارئ هذا الجهد الدائب، والجهاد الذي لا يني ولا يفتر، حتى لكأنه كان في سباق مع الزمن، أو كأنه ينهض بواجب مقدَّس، يعطيه كل دقيقة من عمره، وكل دقة من قلبه. وإن كنتَ في ريب، فإليك إحصاء بهذا الحشد من المؤلَّفات التي نهض بها ابن الوردي وحده:

١ - نظم الحاوي الصغير في الفقه، شعراً في خمسة آلاف وثلاث وستين بيتاً، وسمى هذا النظم «البهجة الوردية».

٢ - شرح على ألفية ابن معطي، سماه ضوء الدرة.

٣ - شرح لألفية ابن مالك في النحو.

٤ - مختصر لألفية ابن مالك في مائة وخمسين بيتاً.

٥ - المسائل الملقبة في الفرائض.

٦ - اللباب في علم الإعراب.

٧ - تذكرة الغريب في النحو.

هذا غير ما كتبه في النثر والنظم. وعلى ابن الوردي، فقِسْ بقيةَ العلماء.

وإلى جانب هذا الفريق الذي انكبَّ على التراث صيانةً وإحياء وشرحاً وتبسيطاً، كان هناك فريق آخر وضع نُصب عينيه بناءَ الشخصية المسلمة، وتبصيرَها بالمنهج الإسلامي الرشيد، والتصدي لمن يروم إفسادها ببعض ما أفرزه العصر من معتقدات باطلة، وأفكار فاسدة. وعلى قمة هذا الفريق يأتي الإمام العالم ابن تيمية، وتلميذُه ابن قيم الجوزية. وأظن أنهما في غِنًى عن التعريف، وما زالت جهودهما في خدمة الإسلام والمسلمين يُنتفع بها إلى يومنا.

هذه نبذة مختصرة عن أثر العلماء في عصر ابن الوردي، سقناها لتبين أن الأمر لم يكن أمرَ جهادٍ عسكري فحسب، وإنما هو أيضاً جهاد فكري، وربما كان دور مجاهدي الفكر أخطر وأهم؛ إذ لولا هذه الجهود لـمَا تماسكت الشخصية الإسلامية، ولـمَا صمد البناء الداخلي، وحينذاك لم تكن الجيوش - مهما بلغت من القوة - بقادرة على التصدي أو الدفاع، وإنما تصدَّت الجيوش وهي مستندةٌ إلى ركن ركين، وإلى حائط منيع، شيَّده العلماء بالفكر وبالكلمة.

- ٣ -

أما عن شعر ابن الوردي، فقد ترك لنا ديواناً من الشعر متوسط الحجم، يقع في حوالي مئتي صفحة، وقد طبع الديوان مع رسائل ابن الوردي النثرية ومقاماته طبعتين غير محققتين؛ إحداهما بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ، والثانية بالقاهرة سنة ١٣٩٩هـ.

ويبدو أن ما وصلنا من شعر ابن الوردي لا يمثِّل كلَّ ما نظمه؛ إذ كان دائمَ الإلحاح على شعره بالحذف كما يقول هو في مقدمة ديوانه: «وحذفت من نظمي ما لم أعبأ بحذفه، وألحَحْتُ عليه، حتى صيَّرتُه على نصفه، ولولا رجاء الترحُّم ممن يقف عليه، والطمع في بقاء الذكر، فهو مما تتوق النفس إليه لسدَدْتُ بحسب الطاقة هذا الباب، ولحَثَوْتُ في وجه الأدب التراب».

ويُفهم من هذه العبارة أن ابن الوردي كان غيرَ راغب في الشعر، وإنما كان ينظمه «على وجه امتحان القريحة»، كما يقول، ومجاراةً لأدباء

عصره. ويبدو أنه كان يرى أن الشعر مما يقلل من شأن الناس، فنراه يقول في إحدى قصائده:

ولولا الشِّعرُ بالعلماء يُزري
لأتعبْتُ القرائحَ باقتراحي

وكنتُ أطا على الشُّعرا بشعري
وأُطفي الشُّهْبَ مِنْ شَرَرِ اقتداحي

وعلى أيٍّ، فقد تناول في شعره كلَّ ما تناوله شعراء عصره من حماسة وفخر وغزل ووصف وإخوانيات، وإن كان يحذِّرنا في بداية الديوان من أن نأخذَ غزلَه أو ما شابهه على أنه يصور واقعاً عاشه الشاعر، فإنما هو مِنْ باب رياضة القول، وامتحانِ القريحة، يقول:

«وقد يقف الناظر في مجموعي هذا على وصف عِذارِ الحبيب وخدِّه، ونَعْتِ رِدْفِه وقَدِّه، وذمِّ الشيء وحمدِه، ومدح الشخص لرِفْدِه، وجَزْرٍ في القول ومدِّه، فيظن لذلك بي الظنون، غافلاً عن قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٢٦]، وإني إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة، ومحبةً في المعاني المبتكرَة، واللُّمع المليحة».

وأول ما يطالعنا به ديوان ابن الوردي مدائحُه النبوية؛ فله عدد غير قليل منها، لعل أطولَها:

أدِرْ أحاديثَ سَلْعٍ والحِمَى أدِرِ
والْهَجْ بذكرِ اللِّوى أو بانةِ العطرِ

وتليها في الطول مِدْحَتُه:

قلبٌ كواه البَيْنُ حتى أنْضَجَا

مازال في بحر الغرامِ مُلَجْلَجَا

ولعل من الظواهر اللافتة في هذا العصر كثرة المدائح النبوية؛ فما مِنْ شاعر إلا وله عدد من هذه المدائح، ولعل ذلك راجعٌ إلى ما كان يضطرم به العصر من صراع بين التوحيد والشرك، ومن هجمات شرسة على الإسلام من الشرق والغرب، وكانت هذه المدائح، فضلاً عما تستثيره وتبعثه من المشاعر الروحية، ترسم المثل الأعلى للشخصية الإسلامية بما تصوره من سيرة الرسول ﷺ، وكأنها تحلِّق بالناس عبر آفاق الزمن تصل الماضي بالحاضر، وتبين أن جوهر القضية واحد، ومن هنا تأتي أهمية هذه المدائح في هذه الفترة الدقيقة من حياة الإسلام والمسلمين.

ولعله مما يلفت نظر القارئ لديوان ابن الوردي أنه يخلو من قصائد المديح أو يكاد، فليست هناك سوى قصيدة واحدة هي:

أنا بالحبِّ قانعٌ باليسيرِ

بخيالٍ يزورُ أو وعد زورِ

وهي في «وزير» لم يسمِّه، ويبدو أنه وزيرٌ متوهَّم، لأنه يقول مقدماً لها: «لم أُرد بها معيناً، والحمد لله على الغِنى، فأنا لا أمدح ولا أهجو، ولا أخاف حِرمان أحد ولا أرجو».

والقصيدة نفسها تؤكد هذا القول؛ إذ همَّ الشاعر فيها أن يُغرب في صورة، وأن يطرف مقارناً بين المحبوب والممدوح، بحيث غدت القصيدة أقربَ إلى الغزل منها إلى المدح.

ويفخر ابن الوردي في غير موضع من ديوانه بأنه لم يمدح أحداً، ولم

يستذلَّ وجهه وشعره بالسؤال؛ يقول:

حمى الله شِعْرِيَ عن ذِلَّةٍ
فلا يستكينُ ولا يخضعُ

وإنَّ اكتسابَ الغنى بالمديحِ
مُهينٌ له مؤلِمٌ مُوجِعُ

وثمة ظاهرة أخرى في شعر ابن الوردي؛ هي غَلَبَة نزعة الزهد عليه، وغالباً ما يأتي زهده متلبساً بشكوى الزمان، وفساد الناس؛ فمن ذلك مثلاً قوله:

جربتُ أهلَ زماني واختبرتُ فلم
أجدْ كريماً ولا عوناً على الحِوجِ

ولا محباً لذي فضل ولا ثقةً
ولا أميناً ولا عدلاً عن العِوجِ

من أجل ذلك قد جانبتُ أكثرَهم
وقلتُ يا أزمةُ اشتدي لتنفرجي

فصافِ أعدلَهم قولاً وأصدَقهم
في الوُدِّ وافتَحْ له بابَ الهوى يَلِجِ

ولا تُزاحِمْ على الدنيا الكلابَ فمن
يُزاحِمُ الكلبَ فيما ناله يَهِجِ

ونحن لا نرى تبايناً بين نزعة الزهد والشكوى من فساد الزمن والناس، ولا نشك أن امتزاج نزعة الزهد وتلبُّسهَا بالشكوى إنما يشير إلى سبب يضم إلى جملة الأسباب التي أفضت بابن الوردي إلى الزَّهادة، والتي اتَّصل

معظمُها بحياته وما لابَسَها من أحداث.

وابن الوردي لا يَدَّعي بُطولةً في زهده، بل هو يلفتنا إلى ضعفه البشري، وإلى أن نفسه نزّاعةٌ إلى الدنيا، وإلى ما فيها من لذائذ وشهوات، ولكنه يغالبها ويردعها، وما أصدق ما يصور به نفسه في قوله:

أُحبُّ الدُّمَى وسوادَ اللَّمى
وربُّ السَّما خوفُه يردعُ[1]

على أن هذه النزعة الزاهدة لم تمنع الشاعر من القيام بدور إيجابي في عصره، ومن المشاركة الفعَّالة في حياة الناس بالرأي والقول، ومن التعاطف مع الأحداث؛ إنْ ألماً وإنْ فرحاً، فتراه مثلاً ينتشي حين تحوُّلِ كنيسة اليهود بحلب إلى مدرسة للحديث على يد القاضي كمال الدين بن الزملكاني، ويعبِّر عن هذا الفرح بقوله:

علا لك ذكر ليس يشبهه ذكرُ
وأحرَزْتَ فخراً ليس يُدرِكُه الفخرُ

هنيئاً بنُعمى خلَّدَ اللهُ ذكرَها
وطالَ بها بِشْرٌ وطاب بها نشرُ

نصرتَ بفتح الناصريَّةِ دينَنا
ألا في سبيل الله ذا الفتحُ والنصرُ

وسمَّيْتَهَا دارَ الحديث لأنَّها
حديثَةُ عهدٍ جاء في نزعها الأمرُ

---

(١) الدمى: التماثيل، يقصد بها النساء. اللمى: سُمرة في الشفة.

وهمزاً قلبْتَ الكافَ فهي أنيسةٌ
لعَمْرُك لي قلبٌ بذا القلب ينسَرُّ
ومَنْ غــاظَه هذا فليس بمسلمٍ
وهل مسلمٌ يختار أن يُنْصَرَ الكفرُ

ونراه يتألم أشدَّ الألم حين يموت الإمام «ابن تيمية» مسجوناً بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ، فيبكيه غاضباً على هؤلاء الذين سجنوه وعذبوه دون جريرة، فيقول:

إمــامٌ لا ولايةَ كــان يرجــو
ولا وقفٌ علـيــه ولا رباطُ
ولا جناراكُمُ في كسْبِ مـالٍ
ولم يُعْهَـدْ له بكُمُ اختـلاطُ
ففيمَ سجنتُموه وغِظْتُموه؟
أما لِجَزا أذيَّتهِ اشتـراطُ؟
وسجنُ الشيخ لا يرضاه مثلي
ففيه لقَدْر مثلِكُم انحطاطُ
أمـا والله لولا كَتْمُ سـرِّي
وخــوفُ الشَّرِّ لانحلَّ الرباطُ
وكنت أقول ما عندي ولكن
بأهل العلم مـا حَسُنَ اشتطاطُ
فما أحدٌ إلى الإنصاف يَدْعُو
وكلٌّ في هواه له انخـراطُ

وتراه أيضاً يشارك بشعره في نقد مفاسد عصره ومباذله، فيعلن سُخطَه على أُولي الأمر الذين سخَّروا الناس في حفر إحدى القنوات، ويقول: إن هذه القناة أصبحت تَشرَق من الدم، وإن من سخَّر الناس في حفرها سيشرَق في يوم الحساب من الندم، وإنه يكره الوضوء من هذه القناة التي حُفرت بدماء الرعايا وسُخْرة المسلمين:

كرهت وُضوءاً من قناةٍ تُسَاقُ مِنْ
دماءِ الرعايا أو بسُخْرة مسلمِ

سيَشْرق في يوم الحساب ندامةً
كما شَرِقَتْ صدر القناة من الدمِ

وفي أبيات أخرى نراه يبين أن الطاعون الذي أصاب بلده معرَّة النعمان أخفُّ مما يقع عليها من مظالم الحكَّام، يقول:

رأى المعرَّة عيناً زانَها حَورُ
لكنَّ حاجِبَها بالظُّلم مقرونُ

ماذا الذي يصنع الطاعون في بلدٍ
في كلِّ يومٍ له بالظلم طاعونُ

وفي موضع آخر ينتقد أحد الولاة، فيصِمُه بالبخل وضَعَةِ القدر؛ وذلك في قوله:

فلانٌ والينا على رغْمِنا
لا بارك الرحمن في عمرِه

جَفْنَتُهُ أضْيَقُ من جَفْنِه
وقِدْرُه أصغرُ من قَدْرِه

ويشير إلى ما كان يُبذل من رِشاً في سبيل الحصول على المناصب، فيقول لأحد من تولَّوْا:

نحن قوم ما وَلينا
بالرِّشا مثلَ فِعالِكْ
بل بعلمٍ واجتهادٍ
وبما أشْبَهَ ذلكْ

أما القضاء والقضاة، فقد استأثرا بمساحة كبيرة من شعره، وسنُورد نماذجَ من ذلك حينما نعرض لمسألة القضاء في القصيدة التي نحن بصددها.

على أن ابن الوردي، مع نقده لجور المماليك الأتراك، وسخطه على مطالبهم، فإنه كان يرى أن جَوْرهم يُحتمل عن جَوْر المغول، وبعضُ الشرِّ أهون من بعض، يقول:

التُّرك مِلْحُ الأرض في عصرنا
والفَلَكُ الدائر في سعدهمْ
تعرف مَنْ يعرف مقدارَهم
مَنْ ذاقَ جَورَ المُغْلِ مِنْ بعدهمْ
اللهُ لا يُوحشُ مِنْ أُنْسهم
فَجَوْرُهُم أهْوَنُ من فقدهمْ

وشعر ابن الوردي – بعد ذلك – تغلب عليه السهولة؛ فهو ينأى عن استخدام الألفاظ الغريبة أو الخشِنة، ويجنَح إلى لغة قريبة من لغة الحياة. ومن ناحية ثانية، فإن خفة الظل والروح والفكاهة من سمات شعر ابن

الوردي البارزة، وبخاصة في لقطاته الخاطفة. فانظر إليه مثلاً يتهكم على ألثغَ، ويحاكي لثغتَه:

وألْـثَـغٍ يَـتَـجَـرَّا
ويصبغُ العِرضَ صَبْغَا
إن قيل: هل أنت برّا
يقل نعم «أنا بغّا»

ويسخر من مغنٍّ قبيح الصوت، فيقول:

غَنَّى لنا يومَ حرٍّ
فمات برداً رفاقي
ياليتنا في حجازٍ
إذا شدا أو عراقِ

ومن أطرف قصائده التي تتمثَّل فيها هذه الروح الفاكهة قصيدته الرائية التي يصوِّر فيها عبدَه «بهادر»، هذا العبد النكِد المشاكس. واقرأ له منها قوله:

بهادرُ عبدي لا بهاءٌ ولا دُرُّ
فما أنا حُرٌّ يومَ قولي له حُرُّ
رقيقٌ غليظُ القلب فظٌّ مقطِّبٌ
كثيرُ الأذى بادي البَذا جبل وعْرُ
نَمُومٌ نؤُومٌ ماكرٌ غيرُ شاكرٍ
حقودٌ نقودٌ مائن خائنٌ غَمرُ

وابن الوردي في شعره يلفت إلى النفس الإنسانية وما فيها من ضعف. وقد مرَّ بنا شيء من هذا، ولكن ربما يتجلى ذلك بوضوح في تصويره أهلَ

عصره حين نزل بهم الطاعون، وبرز لهم الموت، فإذا بهم يتذكَّرون اللهَ، ويحاولون إصلاحَ ما فسد من أمرهم، يقول مصوراً ذلك:

فهذا يوصي بأولاده
وهذا يودِّع جيرانَهُ
وهذا يهيِّئ أشغالَه
وهذا يجهِّز أكفانَهُ
وهذا يُصالحُ أعداءَه
وهذا يلاطف إخوانَهُ
وهذا يوسِّع إنفاقَه
وهذا يُخالِل مَنْ خانَهُ
وهذا يُحبِّسُ أملاكَه
وهذا يحرِّر غلمانَهُ
وهذا يغيِّر أخلاقَه
وهذا يغيِّر ميزانَهُ

ولم يمهل الموتُ ابنَ الوردي حتى يصور الناس وقد انقشع عنهم هذا الخطر، وتبرَّجت لهم الأماني مرةً أخرى.

وقد أخذ ابن الوردي في شعره بالمحسِّنات اللفظية التي شُغِفَ بها شعراءُ عصره؛ من جِناس وطِباق وتورية، ولكن دون إسراف، فنراه مثلاً يجانس بين عاذل وعادل، وقصرت وقصور، ويطابق بين أحسن وأساء في قوله:

لست صخراً في حُبِّي الخنساء
فهي تجني بوجنة حمراءَ

عاذلي غيرُ عادلٍ في هواها
وإذا أحسن العذولُ أساءَ
قصرت بالقصور كالترك ألحاظاً
كالعرب خطْرةً وذكاءَ

ولكننا نرى أن غرام ابن الوردي كان بالتورية؛ وهي إيراده لفظ بمعنيين أحدهما قريب غير مقصود، والآخر بعيد هو المقصود، فنراه مثلاً يوري في كلمة الخافقين في:

أفدتُ بصدِّه سَبْياً وسهدا
حملتُهما على رأسي وعيني
وراية حُسْنِه خفقت كقلبي
فهنّوه بملك الخافِقَينِ

فالمعنى القريب لكلمة «الخافقين» هو العالم، وهو معنى غير مقصود، أما المعنى المقصود، فهو الراية الخافقة والقلب الخافق.

ومثل آخر فيه كلمة «كسر»؛ وذلك في قوله:

أنحَلَتْني حبيبتي
أنحلَ اللهُ خَصْرَها
كسرتني جفونُها
ضاعفَ اللهُ كسرَها

فالمعنى القريب لكلمة «كسرها» في آخر البيت الثاني معروف، ولكن المقصود هو «كسر الجفون» وهو لون من الفتنة في العين، إذ هو آيةٌ على الحياء.

- ٤ -

وإلى جانب الديوان الشعري ترك ابن الوردي جملةً من الآثار النثرية، موزعةً على فنون النثر المعروفة في عصره من مقاماتٍ ورسائلَ وإجازاتٍ وتوقيعات.

فمن المقامات: المقامة الصوفية، والمقامة الأنطاكية، والمقامة المشهدية.

وهو في مقاماته يسير على أسلوب المقامات الذي عُرف عند الهمذاني والحريري من التزام السجع وسائر المحسِّنات البديعية، ولكن ما يميز مقامات ابن الوردي من مقامات الهمذاني والحريري هو خلُوُّها من عنصر الكيْد؛ إذ كان البطل مثلاً في مقامات الحريري صاحبَ حيلةٍ يحتال بها للكسب، وفي كل مقامة له خدعة جديدة، أما مقامات ابن الوردي، فقد خلت من كل ذلك، واتّجهت في عمومها للوصف.

وعن إجازات ابن الوردي وتعليقاته ورسائله، فهي لا تكاد تتميَّز بشيء في مضمونها وأسلوبها عما عُهِدَ من آثار عصره النثرية.

ونسوق هنا بعضَ النماذج من نثره.

فمن فتواه في الفتوَّة يقول:

«ليس الفتيُّ من ضرب بالسكين والسيف، الفتيُّ من أطعم المسكين والضيف، ليس الفتي من أقام الشنائع وشهر على الأمة السلاح، الفتي من دقق الدرائع وسهر في جمع الكلمة والإصلاح، ليس الفتي من قال بالشاهد، الفتي من يحاسب نفسه ويجاهد».

وله من رسالة:

«أرسلتُها إليك، وجعلت طولها عرضاً بين يديك، والله تعالى يبقي حياتك التي فيها لأهل العلم النصيب الأوفى والحظ الأوفر، ويديم أياديك التي إذا دامت فما نقص الفضل، ولا مات يحيى، ولا نضب جعفر».

تلك إطلالة على ابن الوردي وعصره، نضعها بين يدي عرضنا لقصيدته «نصيحة الأخوان ومرشدة الخلان».

مقتطفات
من شعر ابن الوردي

أولاً : في مديح الرسول ﷺ

(أ) عذبت ورداً

أدِرْ أحَاديثَ سَلْعٍ في الحِمَى أدِرِ
والْهَجْ بذكرِ اللّوى أو بانَةَ العطِرِ
واذكر هُبوبَ نسيم المُنحنى سَحَراً
لَمَّا تمرُّ على الأزهارِ والغُدُرِ
وقُلْ عن الجزع واذكُرني لساكنه
لعلَّ بالجزع أعواناً على السَّهَرِ[1]
وصِفْ جنانَ قُبا واختِمْ بطيِّبَة ما
سامرَتْني فهو عندي أطيبُ السمرِ
منازلٌ كسيت بالمصطفى شرفاً
بأفضلِ الخلقِ مِنْ بدوٍ ومِنْ حضرِ
إذا تبسَّم ليلاً قُلْ لمبسِمه
يا ساهرَ البرق أيقِظْ راقدَ السمُرِ
عذُبْتَ ورْداً فلم تُهجَرْ على خصرٍ
والعذبُ يهجر للإفراط في الخَصَرِ[2]

---

(١) سلع الحمى والمنحنى واللّوى: أماكن حجازية، أو قريبة من الحجاز، وقد درج الشعراء على أن يبدؤوا بها مديحَهم للرسول ﷺ إظهاراً لحنينهم إلى الأرض التي سكنها ﷺ.

(٢) الخصر: البرودة. ويقصد أن مورده ﷺ عذب دائماً، لا يملّه وارده.

الإنسُ والجنُّ يا أبهى الورى أتَيَـا
يستجديانك حُسْنَ الدَّلِّ والحَوَرِ
لم تألُ نُصحاً نفوساً كذبت وعَتَتْ
لكن سمحتَ بما ينكرن من دُرَرِ
يا شاملاً خِيْرةَ الدنيا وساكنَها
لا شيء عن حِلْيَةٍ حسناءَ منك عُرِي
جاءت إليك كنوزُ الأرض يتبعُها
آلافُـها وألوفُ اللام والبِدَرِ
فما ازدهتْكَ ولا غرَّتْكَ زينتُها
وعِشتَ عيشَ حثيثِ السيرِ محتضرِ
عليك مِنْ صلواتِ الله أفضلُها
ما لاح بدرٌ وناح الوُرْقُ في السَّحَرِ (١)

(ب) أعلى الورى قدراً

أعلي الورى قدْراً وأعظمُهم تُقًى
وأتمُّهُم جاهاً وأكملُهم حِجَا
وأحدُّهم سيفاً وأكثرُهم ندًى
وأعزُّ منزلةً وأعظمُ منهجا

---

(١) القصيدة طويلة، اجتزأنا منها هذه الأبيات.

ولـه مِنَ المعــراج آياتٌ سَــمَتْ
لَـمَّـا دعـاهُ اللهُ في ليلٍ سـجـا
مَنْ راح يُحْصِي معجزاتِ محمدٍ
فـيـعـدُّ مـوجَ البـحـر حين تموَّجـا
مَنْ أنزل القـرآنُ في أوصـافـه
أن قـاصرٌ عن مـدحـه مُـتَلَجْلِجـا
صلى عليك اللهُ يا خـيـرَ الورى
ما نارَ نورٌ مِنْ ضريحِك في الدُّجَى

ثانياً : في شكوى الزمان

(أ) ما للزمان؟

مــا للزمــان عن المروءةِ عــاري
مــا عنده في منكرٍ من عــارِ
أشكـو إلى الله الزمــانَ فـدأبُه
عــزُّ العــبـيــد وذلةُ الأحــرارِ
لا غَـرْوَ أنْ حَـسـدَتْ بنوه مناقبي
كلٌّ على مـجـرى أبيـه جـارِ
وارحـمـتـا للحـاسـدين فنارُهم
قـد سُـعِّـرتْ بُعْـداً لهـا من نارِ
وإذا جـرى ذكـري تكادُ قلوبُهم
تنشقُّ أو تغـتـالُني بشَـرَارِ

كَـرِهُوا عطاءَ الله لي يا ويحَـهم
لشـقـائهـم كـرهوا صنيع البـاري
وَيَزيدُهـم ناراً وقـودُ قـريحـتـي
وبلوغُ أخـبـاري إلى الأقطارِ
فـاحـذرْ بني الدنيا وكن في غـفلةٍ
عنهم وجـانبْ كلَّ كلبٍ ضـاري
واحـفـظ لصاحـبك القـديم مكانَه
لا تـتـرُكِ الوُدَّ القـديمَ لطاري
وإذا أساءَ وفـيكَ حِـمْلٌ فـاحـتَـمِلْ
إنَّ احـتـمـالَك أعظمُ الأنصـارِ
قِـيَمُ الورى مـا يُحـسنون وزينُهم
ملحُ الفنون ورقـةُ الأشـعـار
فـاعـمل بما عُلِّمت فـالعلمـاءُ إنْ
لـم يعـملوا شـجـرٌ بلا أثمـارِ
والعلم مهما صادف التقوى يكُنْ
كـالرِّيح إذْ مـرَّت على الأزهارِ
يا قـارئ القـرآن إن لـم تَتَّـبِعْ
مـا جاء فـيه فأينَ فـضلُ القاري؟
إن أبقَ أو أهلك فـقـد نلتُ الـمُنى
وبلغتُ سُؤْلي قـاضـيـاً أوْطاري

ورأيتُ للأيامِ كلَّ عجيبةٍ
وسئمتُ مِنْ صَفْوٍ ومِنْ أكدارِ
حتى لقد أصبحتُ لا أرجو ولا
أخشى سوى ذي العِزَّة القهّارِ

(ب) سوق الجهالة

لا تحرصنَّ على علمٍ ولا أدبٍ
فقد يضرُّ الفتى علمٌ وتحقيقُ
ولا تعُدْ مِنَ العُقَّال بينهم
فإنَّ كل قليلِ العقلِ مرزوقُ
والحظُّ أنفعُ مِنْ خطٍّ تُزَوِّقُهُ
فما يُفيدُ قليلَ الحظِّ تزويقُ
أهلُ الفضائل والآدابِ قد كَسَدُوا
والجاهلون فقد قامت لهم سوقُ

(جـ) هو الدهر

هو الدهر يلحنُ في أهلِه
فيخفِضُ مَنْ حقُّهُ يُرْفَعُ
ألم ترَه ضدَّ أهلِ التُّقى
ومَنْ ضِدُّهُ الدهرُ ما يصنعُ
فكم ناقصٍ ثَغْرُه باسمٌ
وكم فاضلٍ سِنُّه تُقْرِعُ

فــلا تُعْــجِــبَنْك على جــاهلٍ

فــــدولتُـــه بَغْـــتَـــةٌ تُقْلِعُ

ولو بلغ الجــاهلون السُّـــهـــا

فـمــا تَحْتَ مـوضـعـهم مـوضعُ

فـــخلِّ العلومَ إذا جــئــتَــهـم

فليس لـهـــا عندهم مــــوقعُ

ولا تـذكـــــرون أدباً عندهـم

فـــأبيـــاتُ أشــعـــارهم بَلْقَعُ

أجَلُّ الورى رُتبــــــةً عندهـم

وضـــيعٌ يُزَمْــزِمُ أو يُصْـــفَعُ

أرى البُخل مستبشَعاً فاحشاً

وســـعـــيي إلى بابِهم أبشعُ

فـيـا قـبـحَـهم في الذي خـوَّلوا

ويا حُـــسْنَهم عندمـــا يُنْزعُ

مضى ما مضى وانقضى ما انقضى

وعند المهـيـمِنِ نسـتـجـمعُ

فـــلا الجـــاهُ يومـــئـــذٍ نافعٌ

ولا المال يومـــئـــــذٍ ينفعُ

ثالثاً: القضاء والقضاة

(أ) كنز القناعة

أتهـــزأ بي لما أجـــدُّ وتلعبُ

وتعجبُ مِنْ حالي وحالُك أعجبُ

ألا طالما قـد كنتُ مـثلَك ساعـياً
لجـــاهٍ ومـــالٍ جـــاهداً أتطلَّبُ
وطال اجـتـنابي للخـمـول فـذقـتُه
فطاب فـأحـبـبتُ الذي أتَجَنَّبُ
وما العيشُ إلا في الخمول مَعَ الغنى
فـــشكـراً لمن في فـضله أتَقلَّبُ
ومـــا ذاك عـن مـــالٍ جـــزيلٍ وإنما
كـفـاني كـفـافٌ والقناعـةُ تُغلبُ
ولـو ذقــتـمُ طِيبَ القـناعـــةِ مــتمُ
عليــهـا ولكن بدرها يُتَــهـــيَّبُ
تركـتُ لكم عـز القـضـاء وجـاهَهُ
وأبـعــدتُ عنه خـــائفـــاً أترقبُ
فقوموا على ساقيْ حديد وشمِّروا
لنَيْلِ عـلاءٍ واهجـروا النوم واطلبوا
وميلوا وجولوا واحكموا وتخوَّلوا
وصولوا وطولوا وانبـذوا الزهد واطلُبوا
سـتـعلـم نفسٌ أيَّ حِـمْلٍ تحمَّلت
ليـومِ أسًى مِنْ هوله الطفلُ أشيبُ
لقـد نلتُ مِنْ كنز القناعـة بُغْـيَتي
وجـانبتُ حرصي والحريصُ معذَّبُ

(ب) إني تركت عقودهم

أني تركت عقودهم وفسوخهم
وفروضهم والحكم بين اثنينِ
ولزمتُ بيتي قانعاً ومطالعاً
كتبَ العلوم وذاك زينُ الزَّينِ
أهوى من الفقه الفُروقَ دقيقةً
فبها يصحُّ تفرُّز النَّصَّينِ
وأُحبُّ في الإعراب ما هو غامضٌ
عن نصفِ نحويٍّ وعابر عينِ
وأقول في علم البديع معانياً
مقسومة بين البيان وبيني
وتركت نظْمَ الشعر إلا نادراً
كالبيت في سَنَةٍ أو البيتينِ
ما الشعرُ كالعلمِ الشريفِ نباهةً
فالعلمُ فيه سعادةُ الدارينِ

(جـ) رتبة التقليد

يا من غدا في طِلابِ العلم مجتهداً
لم يُثْنِه عنه لا مالٌ ولا ولدُ
لا تبسطنَّ لتقليدِ الأمور يداً
أيرتضي رُتبةَ التقليدِ مجتهدُ؟[1]

---

(١) في كلمة التقليد تورية، فالمعنى القريب غير المقصود هو السير على منوال السابقين، أما المعنى البعيد المقصود، فهو تقلُّد المنصب.

(د) القضاء مفرق

وَلِيَ القضاء وصار لا
يلوي ولا يترفَّقُ
ها قد تفرَّق شملُه
إن القضاءَ مُفَرِّقُ

(هـ) بألف مداس

قالوا: تركتَ الحكمَ قلتُ: تركتُهُ
واعتضتُ عن خضر القضا باليأسِ
قتَلَ الأنامُ على الحُطامِ نفوسَهم
فصفعت دنياهم بألفِ مَدَاسِ

(و) قاضي حلب

يا قومَنا إن الفسادَ قد غَلَبْ
وخافت الأعيانُ سوء المنقلبْ
ومن نشا بين الحمير والجَلب
كيف يكون قاضياً على حلبْ

(ز) قاض من السوق

قاضٍ مِنَ السُّوق أتى
يعتادُ بيع الأكسيَهْ
ذا للوصايا ما يَعِي
كيف يعي للأقضيَهْ

(حـ) قاض خياط

التاجر الخياط قاضٍ عندنا
ولديه تُثبتُ ردَّةٌ وفسوقُ
ومن العجائب أن يخيط قلوبَنَا
بجماره ولسانُه مفتوقُ

رابعاً : متفرقات

(أ) ترفُّع

إذا ما هجاني ناقصٌ لا أجيبُه
فإني إن جاوبتُه فلِيَ الذنبُ
أنزِّهُ نفسي من مساواة سِفْلَةٍ
ومن ذا يَعضُّ الكلب إن عضه الكلبُ

(ب) حية المال

أيها الباخلُ فيما قد مَلَكْ
أنت للمال وليس المالُ لَكْ
فاحترِسْ من حيَّة المالِ فلا
بدَّ وأن تقتلَها أو تقتُلَك

(جـ) من ماء وطين

تجنب أصدقاءك أو تغافلْ
لهم تظفَرْ بودهم المتينِ
وإن يتكدَّرُوا يوماً فعُذراً
فإن القوم من ماءٍ وطينِ

(د) قليل المال

إذا كان المحبُّ قليلَ مالٍ
فما أيَّامُهُ إلا ليالي
لقد هان المقِلُّ على البرايا
ولم يخطرْ لمخلوقٍ ببالِ
فأصبحَ بين أهليه غريباً
طويلَ الهجرِ مُنْبَتَّ الحبالِ

(هـ) الشيب

أنكرَتْ شيبي فصدَّت ونأتْ
قلت: إن المالَ للشيب دوا
قالت اسكت إنما الشيبُ عمىً
فبياض الشعر والغينِ سَوَا

(و) ومن تولى فإلى...

وإذا كرهتَ منزلاً
فدونَك التحوُّلا
وإن جفاك صاحبٌ
فكن به مستبدلا
لا تحتملْ إهانةً
مِنْ صاحبٍ وإن علا
فمن أتى فمرحباً
ومن تولَّى فإلى

(ز) ألثغ

لثـغـة من أهواه مِنْ حُـسْنِهـا
عندي على الوجـهين محـمـولهْ
قلت سـهـامُ الطَّرف منسـولةٌ
لرمي قلبي قـال: منشـولهْ
قلت سيـوف الصبـر مسلولةٌ
عليك منِّي قـال: مـشلولهْ

(جـ) عبد مشاكس

بهـادرُ عـبـدي لا بهـاءٌ ولا درٌّ
فـمـا أنا حـرٌّ يوم قـولي له حـرٌّ
رقـيق غـليظُ القلب فظٌّ مـقطِّبٌ
كثيرُ الأذى بادي البذا جبل وعرُ
نموم نؤوم مـاكـرٌ غـيـرُ شـاكـرٍ
حـقود نقـود مـائنٌ خـائنٌ غَـمـرُ
إذا قلتُ: قم بَرِّدْ لنا الماءَ قـال لي
أترغبُ في فاني النعيم وتغترُّ؟!
وإن قلتُ: تَوْبِلْ خبزَنَا قال لا تكن
مُخالِفَ ما يعتاده السَّلف الصَّدرُ
وإن قلتُ: طيِّب مطعمي قال: قد مضت
أماثِلُ ما للأكل عندهم قـدْرُ

وإن قلتُ: جمِّل بيتَنَا قال: كلٌّ ذا
فضولٌ وفي أشباهه لم يَلِقْ فِكْرُ
وإن قلتُ: قدِّم شربةَ الماء هَزَّها
بغيظٍ رجاءَ أن يكدِّرَها العكرُ
وعن أكثر الحاجات يُكْبِرُ نفسَهُ
فيا أقذرَ الغلمانِ ما أنت والكِبْرُ؟

(ط) الحاسد المسخر

سبحان من سخَّر لي حاسدي
يُحْدِثُ لي في غيبتي ذِكْرا
لا أكره الغِيبةَ مِنْ حاسدٍ
يُفيدني الشُّهرةَ والأجرا

(ي) بل نسيته

أفْشى إليَّ صاحبي
سراً وقد لقيتُه
فقال هل حفظتَه
فقلتُ بل نسيتُه

(ك) يا نفس

ألا يا نفسُ لا تعصي
وقد صدَّقْتِ بالنَّصِّ
ألا يا نفسُ ما عُذري
إذا هم غيَّبوا شخصي

ألا يا نفسُ هل عزْمٌ
لأسعى سَعْيَ مختَصٍّ
عدوي أنتِ يا نفسي
فكم سعيٍ وكم حرصِ
ذنوبي في زياداتٍ
وعُمري لجَّ في النقصِ
أنا في غَمرتي ساهٍ
وأعمالي لها مُحصي

قصيدة ابن الوردي
المسماة
«نصيحة الإخوان ومرشدة الخلان»

وردت هذه القصيدة في آخر ديوان ابن الوردي، وذكر جامع الديوان بين يديها أنها نالت شهرة عظيمة، وتداولها الناس. ومع ذلك، فهي ليست موجودةً في ديوان ابن الوردي المخطوط، يقول: « ... ولم نجدها في ديوانه ».

وهذا القول قد يلقي ظلالاً من الشك على نسبة هذه القصيدة إلى ابن الوردي، ولكن هذه الظلال لا تلبث أن تتبدَّد حينما نرى أن القصيدة في نسْجِها لا تشِذُّ عما عرفناه من نسج ابن الوردي الذي كان يتميز بالسهولة، ويأخذ بقدْرٍ من المحسِّنات البديعية.

ومن ناحية أخرى، فإن معاني هذه القصيدة تتردد في شعر ابن الوردي بشكل أو بآخر.

ومن ناحية ثالثة نرى بعض أبياتها مذكوراً في مقاماته النثرية، ومن ذلك ما أورده في مقامته الصوفية من قوله:

ليس يخلو المرء من ضِدٍّ ولو
حاول العُزلةَ في رأس الجبلْ

أين كسرى وهِرَقْل أينَ مَنْ
مَلَكَ الأرضَ وولّى وعزلْ

أين من سادوا وشادوا وبنَوْا
هلك الكلُّ ولم تُغْنِ القُلَلْ

وهي أبيات بنصِّها في القصيدة التي نحن بصدد الحديث عنها.

كذلك، فقد نسبها الشيخ محمد راغب الطباخ صاحب كتاب «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» إلى ابن الوردي، وقال ما نصه: «ومن شعره: قصيدته اللامية المشهورة، التي مطلعها:

اعــتَــزِلْ ذِكْـرَ الأغــانِي والغَــزَلْ
وقُلِ الفَــصْلَ وجــانِبْ مَنْ هَزَلْ

فإنها حوت من الحِكم والآداب ما لم تحْوِه منظومةٌ أخرى»[1].

لكل ذلك، فنحن نطمئن لصحة نسبة هذه القصيدة إلى ابن الوردي.

والقصيدة نمط من الشعر التعليمي، هدف فيها الشاعر إلى إرشاد الناس إلى بعض الفضائل الدينية والأخلاقية، وتبصيرهم بالسلوك القويم، الذي ينبغي أن يأخذ به الإنسان المسلم نفسَه.

والشعر التعليمي نمط من أنماط الشعر العربي، نشأ في القرن الثاني الهجري؛ لاتِّساع أنواع المعارف والثقافات. وقد تنوعت فنون هذا النمط، فهناك شعرٌ لتعليم المعارف الفلكية، وهناك شعر لتعليم النحو، وهناك أيضاً من هذا الشعر ما يتَّجه إلى نظم التاريخ، ومنه أيضاً ما يتجه إلى تعليم الفرائض الدينية من صوم وصلاة، مثال ذلك قصيدةُ أبان بن عبدالحميد اللاحقي، التي يقول فيها:

قــصــيــدةُ الصِّــيــامِ والزَّكــاةِ
نَــقْــلُ أبــانٍ مِــنْ فَــمِ الــرُّواةِ

(١) انظر هامش ص٧٤٩ جـ ١٠ من كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهر لابن تغري بردي.

ويقول عن فريضة الصوم:

هذا كتابٌ في الصوم وهو جامِعُ
لكلِّ ما قامت به الشرائعُ

مِنْ ذلك المُنَزَّلُ في القرآنِ
فَضْلاً على ما كان ذا بَيانِ

وعلى أي حال، فقد اتَّسعت فنون هذا النمط الشعري، حتى تناول كل جوانب العلوم والمعارف، وتعدَّاها إلى السلوك والأخلاق[1].

وإذا كان الشعر التعليمي - في عمومه - لا يخرج عن كونه نظْماً لا يرتقي لمستوى الشعر؛ إذ هو - في غالب الأحيان - مجرد صياغة جافَّة لبعض حقائق العلوم والتاريخ، لا نحس فيها بنبض الشاعر أو عاطفته، فإن هذا القول لا ينطبق تماماً على قصيدة ابن الوردي التي بين يدينا، إذ نحس في كثير من أبياتها بنبض الشاعر، ونراه يضفي من ذاته عليها، ونكاد نلمح تجارب ابن الوردي الخاصة وملابسات حياته تنعكس على عديد من مقاطع القصيدة، ولعل في هذا ما يميز منظومةَ ابن الوردي من سائر المنظومات الشعرية.

كذلك لا تخلو أبيات القصيدة من الخطرة الشعرية؛ إذ نرى الشاعر معنيّاً بالتصوير، وبتنقية العبارة وتكثيفها، وهذه كلُّها أمور من جوهر العمل الشعري.

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الفن، انظر كتاب اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري للدكتور محمد مصطفى هدارة، ط دار المعرفة الجامعية، ص٣٨٠ وما بعدها.

ويغلب على القصيدة طابَع الزهد، وهو طابع غالب في شعر ابن الوردي - كما ألمحنا سلفاً - وهو يتصل اتصالاً وثيقاً بظروف حياته وظروف عصره.

على أن زهد ابن الوردي ينطلق من منابعَ إسلاميةٍ أصيلة، ويقوم على أساس من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولم يختلط به أوْشابٌ من ثقافات أخرى، نقول ذلك لأن بعض شعر الزهد العربي داخلَتْه ثقافات غريبة دخيلة، وابتعد عن المنابع الإسلامية الأصيلة، أو كاد.

وسيجد القارئ أننا نعرِض قصيدة ابن الوردي عرضاً غير تقليدي؛ إذ جعلنا أبياتها ومعانيَها محوراً ندور حوله، فنذكر ما يتصل بها من قرآن أو حديث، ونورد ما يتشابه معها من أشعار، وربما أوردنا ما يدور في نطاقها من بعض الطرائف والأخبار، كذلك فقد كانت لنا وقفات عند بعض المسائل الفقهية التي عرض لها الشاعر، أو ألمح إليها، حاولنا فيها استقصاءَ الرأي حتى يكون القارئ على بيِّنة من الأمر.

كذلك فقد وقفنا عند بعض المواضع التي تعكس تجربة خاصة للشاعر، أو ترتبط بعصره على نحو من الأنحاء، لنبين للقارئ مدى ارتباط الشاعر بملابسات عصره، وربما جرَّنا هذا إلى تتبُّع موقف الشاعر من قضية ما، أو فكرة في سائر شعره.

إذن، فهذا العمل ليس شرحاً للقصيدة بالمعنى الضيق، وإلا لَمَا استأثر بكل هذه الصفحات، ولكنه وضع لها في إطارٍ أعمَّ وأشمل، فكأنها قطبٌ جاذب لكل ما يتصل بموضوعها، ويدور في نطاقها. وما قصدنا بذلك إلا أن نضع هذه القصيدة الفريدة في مكانها من التراث الإسلامي والعربي.

والله الموفق إلى سواء السبيل.

عرض القصيدة

١- اعـتَـزِلْ ذِكْـرَ الأغـانِي والغَـزَل
وقُلِ الفَـصْلَ وجـانِبْ مَنْ هَزَلْ

٢- وَدَعِ الذِّكْـرَ لأيَّامِ الصِّـبَـا
فَـلأيَّامِ الصِّـبَـا نـجْمٌ أَفَلْ

٣- إنَّ أهْنَا عِـيشَـهٍ قَـضَّـيْـتَـهـا
ذَهَبَتْ لَـذَّاتـهـا والإثْـمُ حَـلْ

٤- وافـتكر في مُنتَـهى حُسْنِ الذي
أنـت تـهـواه تجـد أمـراً جَلَلْ

٥- واهجُـرِ الخـمـرَ إن كنت فـتى
كـيفِ يسـعى في جنونٍ مَنْ عَـقَلْ

٦- واتَّق الله فـتـقـوى الله مـا
جَـاوَرَت قلـبَ امـرِئٍ إلا وَصَلْ

٧- لـيس مَنْ يـقطعُ طُـرقـاً بَطَـلاً
إنَّـمـا مَنْ يتَّـقي اللـهَ البَطَلْ

٨- صَـدِّق الشَّـرعَ ولا تـرْكَنْ إلى
رجُلٍ يَـرْصُـدُ بـاللـيـل زُحَـلْ

٩- حـارَتِ الأفـكارُ في قـدرةِ مَنْ
قَـدْ هدانا سُـبْلَهُ عـزَّ وجلْ

١٠- كُتب الموتُ على الخلقِ فكم
فلَّ مِنْ جمعٍ وأفنى مِنْ دُوَلْ

١١- أين نمرودُ وكنعانُ ومَن
مَلَكَ الأرض وولّى وعَزَلْ؟

١٢- أين عادٌ؟ أين فرعونُ ومَنْ
رَفَعَ الأهرام؟ من يَسْمَعْ يَخَلْ

١٣- أين من سادُوا وشادُوا وبَنَوْا؟
هلك الكلُّ فلم تُغْنِ القُلَلْ

١٤- أين أرباب الحِجَا أهلُ النُّهَى؟
أين أهلُ العلم والقومُ الأُوَلْ؟

١٥- سيعيد الله كلاًّ منهمُ
وسيَجزي فاعلاً ما قد فعلْ

١٦- أيْ بنيَّ اسمع وصايا جَمَعَت
حِكَماً خُصَّتْ بها خيرُ المِلَلْ

١٧- اطلُبِ العلمَ ولا تكسَلْ فما
أبعدَ الخير على أهلِ الكسلْ

١٨- واحتفلْ للفقه في الدين ولا
تشتغِلْ عنه بمالٍ وخَوَلْ

١٩- واهجُرِ النومَ وحَصِّله فمن
يعرف المطلوبَ يَحقِر ما بَذَلْ

٢٠- لا تقل قد ذهبتْ أربابه

كلٌّ من سار على الدربِ وصلْ

٢١- في ازديادِ العلم إرغامُ العِدى

وجمالُ العلم إصلاحُ العملْ

٢٢- جَمِّل المنطقَ بالنحو فمَنْ

يُحْرمِ الإعرابَ بالنُّطق اختَبَلْ

٢٣- وانظِمِ الشِّعرَ ولازِمْ مذهبي

فاطِّراحُ الرِّفْدِ في الدنيا أقَلْ

٢٤- فهو عنوانٌ على الفضل وما

أحسنَ الشعرَ إذا لم يُبْتَذَلْ

٢٥- ماتَ أهلُ الفضلِ لم يبقَ سوى

مُقْرِفٌ أو مَنْ على الأصلِ اتَّكِلْ

٢٦- أنا لا أختارُ تقبيلَ يدٍ

قطعُها أجملُ من تلك القُبَلْ

٢٧- إن جزتْني عن مديحي صِرتُ في

رِقِّها أو لا فيكفيني الخجَلْ

٢٨- أعذبُ الألفاظ قولي لك خُذْ

وأمَرُّ القولِ نُطقي بلَعَلْ

٢٩- مُلْكُ كسرى عنه تغني كِسْرَةٌ

وعن البحر اجتزاءٌ بالوَشَلْ

٣٠- اعتبر (نحن قسمنا بينهم)

تلْقَه حقّاً وبالحقِّ نزلْ

٣١- ليس ما يحوي الفتى من عزمِه

لا ولا ما فات يوماً بالكسلْ

٣٢- واترُكِ الدنيا فمن عادتها

تخفِضُ العالي وتُعلي من سَفَلْ

٣٣- عِيشةُ الزاهدِ في تحصيلها

عيشةُ الجاهدِ بل هذا أذلْ

٣٤- كم جهولٍ وهو مُثْرٍ مكثرٌ

وعليمٍ مات منها بالعِلَلْ

٣٥- كم شجاعٍ لم ينَلْ منها المُنى

إنما الحِيلةُ في ترك الحِيَلْ

٣٦- أيُّ كف لم تنلْ منها المُنى

فرماها الله منها بالشللْ

٣٧- لا تقل: أصلي وفصلي أبداً

إنما أصلُ الفتى ما قد حَصَلْ

٣٨- قد يسودُ المرءُ من غيرِ أبٍ

وبحُسنِ السَّبك قد يُنفى الزَّغَلْ

٣٩- وكذا الوردُ منَ الشَّوك وما

ينبُتُ النرجسُ إلا من بصلْ

٤٠- مَعَ أنّي أحـمَـدُ اللهَ على
نسَبي إذ بأبي بكر اتَّصلْ

٤١- قيمةُ الإنسانِ ما يحسنُه
أكثرَ الإنسانُ منه أو أقلْ

٤٢- وكذا الوردُ مِنَ الشوك وما
ينبتُ النرجسُ إلا مِنْ بصلْ

٤٣- اكتُمِ الأمرين فقراً وغِنًى
واكسَبِ الفَلْسَ وحاسِبْ مَنْ بَطَلْ

٤٤- وادَّرِعْ جِداً وكَداً واجتَنِبْ
صُحبةَ الحمقى وأربابَ الخللْ

٤٥- بين تبذيرٍ وبُخلٍ رُتبَةٌ
وكِلا هذين إنْ زادَ قَتَلْ

٤٦- لا تَخُضْ في سبِّ ساداتٍ مَضَوْا
إنَّهم ليسُوا بأهلٍ للزَّلَلْ

٤٧- وتغافَلْ عن أمورٍ إنَّه
لم يفُزْ بالحمد إلا مَنْ غَفَلْ

٤٨- ليس يخلُو المرءُ من ضِدٍّ وإنْ
حاول العزلة في رأس الجَبَلْ

٤٩- مِلْ عَنِ النَّمَّام واهجُرْه فما
بلَّغَ المكروهَ إلا مَنْ نَقَلْ

٥٠- دارِ جـــارَ الدارِ إن جـــارَ وإنْ
لم تجِـدْ صـبـراً فـمـا أحلَى النُّقَلْ

٥١- جانِبِ السلطانَ واحذرْ بطشَه
لا تعـانِدْ مَنْ إذا قـالَ فَعَلْ

٥٢- لا تَلِ الحكم وإن هُمْ سألوا
رغبـةً فيك، وخالِفْ مَنْ عَذَلْ

٥٣- إنَّ نصفَ الناسِ أعداءٌ لمن
وَلِيَ الأحكَامَ، هذا إن عَدَلْ!

٥٤- فهو كالمحبوس عن لَذَّاته
وكلا كفَّيه في الحشر تُغَلْ

٥٥- إن للنَّقص والاستثقال في
لفظةِ القاضي لَوَعظاً ومثَلْ

٥٦- لا تساوي لذةُ الحكم بما
ذاقَهُ المرءُ إذا المرءُ انعزَلْ

٥٧- فالولاياتُ وإنْ طابت لمن
ذاقها فالسُّمُّ في ذاك العَسَلْ

٥٨- نَصَبُ المنصِب أوْهَى جَلَدي
وعنائي مِنْ مداراة السَّفَلْ

٥٩- قصِّر الآمالَ في الدنيا تَفُزْ
فدليلُ العقلِ تقصيرُ الأملْ

٦٠- إنَّ مَنْ يطلبهُ الموتُ على
غِرَّةٍ منه جديرٌ بالوَجَلْ

٦١- غِبْ وزُرْ غِبًّا تزِدْ حبًّا فمَنْ
أكثرَ التَّرْدَادَ أضناه المَلَلْ

٦٢- خذ بحدِّ السيف واترك غِمْدَهُ
واعتبِرْ فضل الفتى دون الحُلَلْ

٦٣- لا يضرُّ الفضلَ إقلالٌ كما
لا يضرُّ الشمسَ إطباقُ الطَّفَلْ

٦٤- حبُّك الأوطانَ عجزٌ ظاهرُ
فاغترِبْ تَلْقَ عَنِ الأهل البَدَلْ

٦٥- فبمُكث الماء يبقَى آسناً
وسُرى البدرِ به البدرُ اكتَمَلْ

٦٦- أيّها العائبُ قولي عبثاً
إنَّ طِيبَ الورْدِ مُؤْذٍ بالجُعَلْ

٦٧- عَدِّ عن أسهم لفظي واستَتِرْ
لا يصيبنَّك سهمٌ من ثُعَلْ

٦٨- لا يغرَّنَّك لِينٌ مِنْ فتًى
إن للحيَّاتِ لِيناً يُعتزَلْ

٦٩- أنا مثلُ الماءِ سهلٌ سائغٌ
ومتى سُخِّنَ آذى وقَتَلْ

٧٠- أنا كالخَيْزور صعبٌ كسرُهُ
وهو لَيْنٌ كيفما شِئْتَ انفتَلْ

٧١- غيرَ أنِّي في زمانٍ مَنْ يكُنْ
فيه ذا مالٍ هو المولى الأجَلْ

٧٢- واجبٌ عند الورى إكرامُهُ
وقليلُ المالِ فيهم يُسْتَقَلْ

٧٣- كلٌّ أهلِ العصرِ غُمْرٌ وأنا
منهمُ فاترك تفاصيل الجُمَلْ

٧٤- وصلاة الله ربِّي كلَّما
طلعَ الشمس نهاراً أو أفلْ

٧٥- للذي حازَ العُلى من هاشمٍ
أحمدَ المختارِ مَنْ سادَ الأُوَلْ

٧٦- وعلى آلٍ وصحبٍ سادةٍ
ليس فيهم عاجزٌ إلا بَطَلْ

١ - اعـتَـزِلْ ذِكْـرَ الأغـانِي والغَـزَلْ

وقُلِ الفَــصْلَ وجــانِبْ مَنْ هَزَلْ

يدعو ابن الوردي في هذا البيت إلى اعتزال مجالس الغناء، والترفُّع عن الغزل، والتزامِ الجدِّ، ومجانبة الهزل، وهي بداية تشعر بجلال ما هو مُقدِمٌ عليه في قصيدته من قول. والشعراء دائماً يبدؤون بشيء من هذا القبيل إذا أرداوا أن يُشعروا القارئ بخطورة ما هم مقدمون عليه.

ونذكر بهذا الصدد الكُميت بن زيد حينما بدأ قصيدته في مدحه لبني هاشم بقوله:

طربت وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ

ولا لَعِباً مِنِّي وذُو الشيْبِ يلعبُ

ولم يُلْهِني دارٌ ولا رَسْمُ منزلٍ

ولم يتطَرَّبْني بَنانٌ مُخَضَّبُ

ولكن إلى أهلِ الفضائلِ والنُّهَى

وخيرِ بني حواءَ والخيرُ يُطْلَبُ

إلى النفرِ البيضِ الذين يحبُّهم

إلى الله فيما نالني أتقَرَّبُ

فهو أيضاً يبين أنه يترفع عن اللهو والنساء، وأن ما به من طرب ليس شوقاً لامرأة، أو شغفاً ببنانٍ مخضَّب، ولكنه طرب يحبه لأهل الفضائل وخير بني حواء، وهم ذرية الرسول ﷺ.

وفي العصر الحديث نرى محمود سامي البارودي - رحمه الله - ينحو

قريباً من هذا النحو، وهو مقبل على التغنّي بـمُثُلهِ العليا، وآماله البعيدة، فيبدأ قصيدته في ذلك بقوله:

سِـوايَ بتَـحْنانِ الأغـاريدِ يَطْرَبُ
وغـيـريَ باللَّذات يلهُـو ويلعبُ
ومـا أنا مِـمَّن تـأسِـرُ الخـمـرُ لبَّـه
ويملِكُ سـمـعـيْـهِ اليـراعُ المثـقَّبُ

واليراع المثقَّب هو المزمار، فكأن البارودي ينفي عن نفسه التعلُّق باللهو ومجالسه، وما يتصل بها من خمر وغناء، ولذَّاتٍ محرَّمة، وهو ما يدعو ابن الوردي إلى اعتزاله، وصوْن النفس عنه.

ولعل قول ابن الوردي يجرُّنا إلى التساؤل حول الغناء والغزل، وموقف الإسلام منهما. وهذا ما نفصِّل فيه القول.

أما الغناء، فقد تكلم الناس فيه، واختلفت أقوالهم، وتباعدت مذاهبهم بين التحريم والإباحة؛ فمنهم من رأى كراهته وأنكر استماعه، واستدل على تحريمه، ومنهم من رأى خلاف ذلك مطلقاً، وأباحه وصمَّم على إباحته، ومنهم من فرَّق بين أن يكون الغناء مجرداً، أو أضيف إليه آلةٌ كالعود والطُّنبور وغيرهما من آلات، فأباحه على انفراد، وكرهه إذا انضاف إليه غيره، وحرَّم سماع الآلات مطلقاً.

وقد سُئل الإمام مالك رحمه الله عما ترخَّص فيه أهل المدينة من الغناء، فقال: إنما يفعله عندنا الفُسَّاق. وقد نهى رحمه الله عن الغناء وعن استماعه، وقال: إذا اشترى إنسان جاريةً، فوجدها مغنية، كان له أن يردَّها بالعيب.

وأما الإمام أبو حنيفة، فإنه يكره الغناء، ويجعله من الذنوب، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهي كلِّها، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسقَ، وتُردُّ به الشهادة.

وأما الشافعي؛ فقال في كتاب «أدب القضاء»: إن الغناء لهو مكروه، يشبه الباطل والمحال، ومن استكثر منه، فهو سفيه تُرَدُّ شهادته. وقال رحمه الله: وصاحب الجارية إذا جمع الناسَ لسماعها، فهو سفيه تُرَدُّ شهادته. وأغلظ القولَ فيه، وقال: هو دِياثة، فمن فعل ذلك كان ديوُّثاً.

وأما مذهب الإمام أحمد؛ فقال عبدالله ابنه: سألت أبي عن الغناء، فقال: الغناء ينبت النفاق في القلب، لا يعجبني، ثم ذكر قول مالك: «إنما يفعله عندنا الفُسَّاق»، ونص على كسر آلات اللهو؛ كالطنبور وغيره إذا رآها مكشوفةً وأمكَنَه كسرها.

أما إباحة الغناء، فقد أجازها قوم؛ منهم الشيخ الحافظ أبو الفضل محمد ابن طاهر المقدسي، الذي جرَّد لذلك تصنيفاً استدل فيه على إباحة الغناء بما رُوي عن عائشة رضي الله عنها من أنها قالت: «دخل عليَّ أبو بكر ﷺ وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث، وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمِزمارُ الشيطان في بيت رسول الله ﷺ؟ وذلك يوم عيد، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا». رواه البخاري ومسلم.

واستدل أيضاً بما رُوي عنها رضي الله عنها من أنها قالت: كانت جاريةٌ من الأنصار في حجري، فزفَفْتها، فدخل رسول الله ﷺ ولم يسمع غناءً،

فقال: «يا عائشة، ألا تبعثين معها من يغني؛ فإن هذا الحيَّ من الأنصار يحبون الغناء». رواه أحمد.

وقد أورد المقدسي أحاديثَ استند إليها في إباحة السماع إلى آلات الغناء؛ مثل اليراع والمزمار وغيرهما[١].

وغير المقدسي هناك الغزالي الذي عقد فصلاً في كتابه «إحياء علوم الدين» دلَّل فيه من وجوه على إباحة الغناء، وأنه لا يدعو إلى تحريمه نصٌّ أو قياس.

على أننا وقد عرضنا ما قيل في الحظر، يأخذ المسلم بالأحوط في دينه. وخير ما نختتم به القولَ في هذه المسألة هذا الحوار الذي دار بين ابن عباس رضي الله عنه وسائلٍ سأله: ما تقول في الغناء، أحلالٌ هو أم حرام؟ فقال: لا أقول حراماً إلا ما في كتاب الله، فقال: أفحلال هو؟ قال: ولا أقول ذلك، ثم قال له: أرأيتَ الحقَّ والباطل إذا جاءا يوم القيامة، فأين يكون الغناء؟ فقال الرجل: يكون مع الباطل، فقال له ابن عباس: اذهب، فقد أفتيتَ نفسك[٢].

أما الغزل، وهو تغنِّي الشعراء بمفاتن المرأة، فما نظن الإسلام نهى عنه، وقد استمع الرسول ﷺ لكعب بن زهير حين ألقى عليه قصيدته «اللامية» التي عُرفت بالبردة، والتي بدأها بقوله:

---

(١) انظر نهاية الأرب من فنون الأدب جـ ٤ ص١٤٤ وما بعدها.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية جـ ١ ص١٨٩ – ط المكتبة القيمة.

بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ
مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ

وفيه وصفٌ لمفاتن «سعاد» هذه:

وما سعادُ غداةَ البَيْنِ إذ رحلوا
إلا أغنٌّ غَضيضُ الطَّرفِ مكحولُ
تجلو عوارضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ
كأنَّه مَنهَلٌ بالرَّاح معلولُ

ومع ذلك، فقد حث الإسلام الشعراءَ على السمُوِّ بعواطفهم، وعدم التدنِّي إلى خُبث القول، وعدم الاستهتار بالفواحش؛ ولذلك قال ﷺ: «إن امرأَ القيسِ حاملُ لواء الشعراء إلى النار»[1]. وما ذلك إلا لأن امرأَ القيس كان يتباهى في شعره بذكر الفواحش، ولا يجد حرجاً من التصريح بالعورات.

أما ذلك الغزل الذي يعبِّر فيه الشعراء عن مواجدهم وأشواقهم، فهو لون من التعبير الفني، لا نجد فيه حرجاً، وما نظنُّ ابنَ الوردي يقصِده، فهو نفسه له من هذا الفن أشعار كثيرة.

ولكن ابن الوردي - فيما نعتقد - دعا إلى اجتناب الغزل بمعناه الواقعيِّ، لا بمعناه الفني، أي إنه أراد أن يصرف الإنسانُ نفسَه عن الهوى المحرَّم، الذي يورده مواردَ الهَلَكَة.

---

(١) الحديث له روايات. وعلق عليه أحمد شاكر في المسند ٢ / ٢٢٨ - وهو أيضاً في كتاب الشعر والشعراء بتحقيق أحمد شاكر أيضاً، وعلق عليه قائلاً: إسناده مظلم، لا تقوم به حجة، بل لا تقوم له قائمة، إنما كلها روايات ضِعافٌ متهافتة، يضعف بعضها بعضاً.

يقول ابن قيم الجوزية في كتابه «روضة المحبين»:

«ولما كان العبد لا ينفكُّ عن الهوى ما دام حياً - فإن هواه لازمٌ له - كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له، والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهلكة إلى مواطن الأمن والسلامة؛ ومثاله: أن الله سبحانه وتعالى لم يأمرْه بصرف قلبه عن هوى النساء جملةً، بل أمره بصرف ذلك إلى نكاح ما طاب له منهن، فانصرف مجرى الهوى من محلٍّ إلى محلٍّ، وكانت الريح دَبُوراً، فاستحالت صَباً»[1].

٢- وَدَعِ الذِّكْـرَ لأيَّامِ الصِّبَـا

فَـلأيَّامِ الصِّبَـا نـجْمٌ أَفَلْ[2]

٣- إنَّ أَهْنَا عِيشَـةٍ قَضَّيْتَهـا

ذَهَبَتْ لَذَّاتهـا والإثْمُ حَلْ

يتوجه الشاعر هنا بحديثه إلى مَنْ تجاوز الشبابَ، فيقول له: لا تذكر الشباب ومُتَعَه بعد أن غاب نجمه، وانقضت عيشتُه الهانئة اللاهية، ولم يبق منها إلا ما اقترفته من آثام.

على أن الحديث هنا، وإن كان الشاعر يتوجَّه به إلى من تجاوز الشباب، ففيه توجيه للشباب أنفسِهم، فكأن الشاعر يريد أن يقول للشباب: لا تنخدعوا أيها الشباب بأيام العافية، ولا تظنوا أن الفُتُوَّة باقية، فإنما هي عَرَض زائل، فلا تُنفقوا أيامَ الشباب في اللهو والملذات حتى لا تجنوا الندامةَ

(١) روضة المحبين ص١١.

(٢) أيام الصبا: أيام الشباب، وأفول النجم: غيابه بعد إشراقه.

والآثام، بل أنفِقوها في الطاعة تَعُدْ إليكم بالربح والسعادة.

وبيتا ابن الوردي يعيدان إلى الذهن قول أبي نواس، وقد أحسَّ بالندم بعد فوات الأوان:

ولقد نَهَزْتُ مع الغُواة بدلْوِهم
وأسَمْتُ سَرْحَ اللهو حيث أسامُوا
وبلغت ما بلغ امرؤٌ بشبابه
فإذا عُصارةُ كلٍّ ذاك أثامُ

ولبكاء الشباب حديث طويل في الأدب، فما أكثر الشعراء الذين بكوْا شبابهم، وندموا على ضياعه حين أبصروا عجزهم في مشيبهم. ومن ذلك قول داود بن جهوةَ:

أقاسي البلا لا أستريح إلى غد
فيأتي غدٌ إلا بكيت على أمسِ
سأبكي بدمعٍ أو دمٍ أشتفي به
فهل ليَ عذر إن بكيت على نفسي
وأنكرت شمس الشَّيْبِ في ليل لِمَّتي
لعمري لَليلِيَ كان أحسن من شمسي[1]

ومن أجمل ما قيل في بكاء الشباب قول البارودي رحمه الله:

كيف لا أندُب الشباب وقد
أصبحتُ كهلاً في محنة واغترابِ

(١) انظر الأمالي لأبي علي القالي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، جـ١ ص١٤١.

أخْلَقَ الشيبُ جِدَّتي وكساني
خُلَعاً منه رثَّة الجِلبابِ
ولوى شعر حاجبيَّ على عينيَّ
حتى أطلَّ كالهدَّابِ
لا أرى الشَّيْء حين يَسْنَحُ إلا
كخيالٍ، كأنني في ضَبَابِ

وما أجمل قول شوقي موجهاً الخطاب إلى قلبه:

ورجعت أدراجَ الشباب ووِردَهُ
أمشي مكانهما على الأشْواكِ
ويح ابن جنبي كلُّ غاية لَذَّة
بعد الشباب عزيزةُ الإدراكِ
لم تَبق منا يافؤادُ بقية
لفُتُوَّةٍ أو فضلة لعراكِ

والعاقل من نظر أمامه، فأخذ من يومه لغده، ومن ضعفه لقوته، ومن شبابه لشيبه، يقول الحق سبحانه: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾** [الروم: ٥٤].

٤- وافتكر في مُنتَهى حُسْنِ الذي
أنت تهواه تجد أمراً جَلَلْ[١]

(١) الأمر الجلل: الأمر العظيم.

يمضي ابن الوردي في هذه الأبيات، فيزهد في ملذات الجسد الفانية، التي لا تُعقبُ غير الإثم والندامة والهوان، ويرى أن السبيل إلى رفعة المرء وعزه وإجلاله يكون في الإعراض عن هوى النساء، وعن الافتتان بصورهن الجميلة، فليس وراء ذلك إلا البلاء، كما يقول أبو العلاء المعري:

تَوَقَّ النساءَ على عِفّةٍ ليجزيَك الواحدُ القَيِّمُ

فأبكارهنَّ ابتكارُ البلاء وأيِّمُهُنَّ هي الأيِّمُ

والأيم الأولى: هي المرأة غير البكر، والثانية: هي الحية، فالبِكر - كما يرى المعري - هواها بلاءٌ أفعى تنفُث السم.

ولم يكن ابن الوردي وحده هو الذي يدعو إلى اجتناب هذه الآثام، التي تمثَّلت في عشق الصور الغانية؛ فقد شاركه في ذلك علماء عصره وفقهاؤه، ومنهم ابن تيمية، وتاج الدين السبكي، وابن قيم الجوزية. ونختار لك بعضاً مما قاله ابن قيم الجوزية بهذا الصدد في كتابه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان».

يقول:

«ومن مكايده ومصايده «أي الشيطان»: ما فتن به عُشَّاق الصور، وتلك - لعَمْرُ الله - الفتنة الكبرى، والبلية العظمى، التي استعبدت النفوس لغير خلاَّقها، وملكت القلوب لمن يسومها الهوان من عشَّاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد، فصيَّرت القلب للهوى

أسيراً، وجعلته عليه حاكماً وأميراً، فأوسعت القلوب محنة، وملأتها فتنة، وحالت بينها وبين رشدها، وصرفتها عن طريق قصدها».

ويمضي قائلاً:

«فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الأول بثمن بخس، وشهوة عاجلة ذهبت لذَّتها وبقيت تَبِعَتُها، وانقضت منفعتها وبقيت مضرتها، فذهبت الشهوة، وبقيت الشقوة، وزالت النشوة، وبقيت الحسرة».

ويصف ما يلاقيه المحب من هوان وقهر في عشقه، فيقول: فلو رأيت قلبه وهو في يد محبوبته لرأيته:

كعصفورة في كفِّ طفلٍ يَسُومُهَا
حياضَ الرَّدَى والطفلُ يلهو ويلعب

ولو شاهدت حاله وعيشه لقلت:

وما في الأرض أشقى من محبٍّ
وإن وجَدَ الهوى حُلوَ المذاقِ

تراه باكياً في كل حين
مسافة فُرقة أو لاشتياقِ

فيبكي إن نأوْا شوقاً إليهم
ويبكي إن دنَوْا حذَرَ الفراقِ

ولو شاهدت نومه وراحته، لعلمت أن المحبة والمنام تعاهدا أنْ ليس يلتقيان، ولو شاهدت فيض مدامعه، ولَهيبَ النار في أحشائه لقلت:

فسبحان رب العرش مُتقنِ صُنْعه
ومؤلِّفِ الأضْدادِ دون تَعانُدِ

قَطْرٌ تولَّد عن لهيبٍ في الحشا
ماءٌ ونارٌ في محلٍّ واحدِ

ويتساءل بعد ذلك في عجب من أمر هؤلاء العشاق:

«فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا الملك المطاع لمن يسومه بسوء العذاب، ويوقع بينه وبين وليِّه ومولاه الحق الذي لا غَناء عنه، ولا بد له منه»(١).

وفي موضع آخر يصِم ابن قيم الجوزية عُشاق الصور بالشرك والتعبُّد لغير الله؛ يقول:

«وأصلُ الغَي من الحب لغير الله، فإنه يضعف الإخلاص، ويقوي الشرك بقوته، فأصحاب العشق الشيطاني لهم من تولي الشيطان والإشراك به بقدر ذلك، لما فيهم من الإشراك بالله، ولما فاتهم من الإخلاص له، ففيهم نصيب من اتخاذ الأنداد، ولهذا ترى كثيراً منهم عبداً لذلك المعشوق متيَّماً فيه، يصرخ في حضوره ومغيبه أنه عبده، فهو أعظم ذكراً له من ربه، وحبُّه في قلبه أعظم من حب الله فيه، وكفى به شاهداً بذلك على نفسه ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾ [القيامة: ١٤ – ١٥] فلو خُيِّر بين رضاه ورضا الله، لاختار رضا معشوقه على رضا ربه»(٢).

ويقول أيضاً في صفة هؤلاء العشاق:

«وعشقهم يجمع المحرَّمات الأربع: من الفواحش الظاهرة والباطنة، والإثم، والبغي بغير الحق، والشرك بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً، والقول على

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، جـ٢ ص٩٢، ٩٣.

(٢) إغاثة اللهفان جـ٢ ص١١٤.

الله ما لا يعلمون، فإن هذا من لوازم الشرك؛ فكل مشرك يقول على الله ما لا يعلم. فكثيراً ما يوجد في هذا العشق من الشرك الأكبر والأصغر، ومن قتل النفوس تغايراً على المعشوق، وأخذ أموال الناس بالباطل ليصرفها في رضا المعشوق، ومن الفاحشة والكذب والظلم ما لا خفاءَ به »[١].

ويمضي ابن القيم في حملته على هذه الموجة العاتية الماجنة، فيقرِن بين العاشق وعابد الوثن؛ فكلاهما عاكف على صورة، يتبتَّل لها؛ يقول:

« فصاحبه » أي صاحب العشق « أحق بأن يشبَّه بعابد الوثن، والعاكف على التماثيل، فإن عكوف قلب العاشق على صورة محبوبه وتمثاله يشبه عكوف عابد الصنم على صنمه »[٢].

نعوذ بالله من الفتنة ومن غَلَبَة الشهوة، وندعوه سبحانه ألا نكون من ذلك الذي وصف بقوله: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد تردد بين الناس حديث موضوع؛ إذ نسبوا إلى الرسول ﷺ قولاً مؤدَّاه « مَنْ عشق، فَعفَّ، فمات، فهو شهيد » وصنعوا لذلك الحديث سنداً ينتهي إلى عائشة رضي الله عنها، ومثل هذا القول لا يُتخيَّل صدورهُ عن الرسول ﷺ من أوجه:

أولها: أن الشهادة درجة عالية عند الله، ولها شروط، وليس العشق واحداً منها.

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ٢ ص١١٤.

(٢) إغاثة اللهفان جـ ٢ ص١١٥.

ثانيها: أن مِنَ العشق حلالاً وحراماً، فكيف يظن بالنبي ﷺ أن يوجب لكل عاشق دخولَ الجنة إذا كتم وعفَّ، حتى ولو كان عشقُه للمحرمات والبغاء والمردان.

ثالثها: هذا الحديث لم يشهد له أحدٌ من أئمة الحديث بصحة ولا حُسْن[1].

على أن الإسلام، وإن كان قد نهى عن هذا الهوى المحرَّم، فإنه وجَّه العباد إلى المحبة النافعة، وهي محبة الرجل لزوجه، قال سبحانه: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [الروم: ٢١].

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه سُئل: «من أحب الناس إليك؟ فقال عائشة». ولهذا كان مسروق رحمه الله يقول - إذا حدَّث عنها -: حدَّثتني الصِّدِّيقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله ﷺ والمبرَّأة من فوق سبع سماوات.

وصح عنه ﷺ أنه قال: «حُبِّب إليَّ من دنياكم النساء والطيب، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة». رواه البخاري ومسلم.

وعن عكاف بن وداعة الهلالي أن النبي ﷺ قال: «يا عكاف، ألك امرأة، قال: لا. قال: فأنت إذن مِنْ إخوان الشياطين؛ إن كنت من رهبان النصارى فالْحَقْ بهم، وإن كنت مِنَّا، فمِنْ سنَّتنا النكاح»[2].

---

(١) انظر تفصيل ما ورد بشأن هذا الحديث: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم جـ٣ ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة جـ ٤ ص٣.

وعن طاوس أنه قال: «لا زمامَ ولا خزام ولا رهبانيةَ في الإسلام، ولا تَبتُّل ولا سياحةَ في الإسلام». رواه ابن أبي شيبة.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، مَنِ استطاع منكم الباءةَ فليتزوج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء».

٥- واهجُرِ الخَمْرَ إنْ كُنْتَ فَتَى

كيف يَسْعَى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ؟!

الخمر هي كل ما أسكر من عصير العنب أو غيره؛ وذلك لِمَا رُوي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس، إنه نزل تحريمُ الخمر؛ وهي مِنْ خمسةٍ: من التمر، والعنب، والعسل، والحِنطة، والشعير».

وإنَّما سُمِّيت الخمرُ خمراً؛ لأنها تخمِّر العقل وتستُره، أو لأنها تخامر العقل وتخالطه، أو لأنها تُركت حتى أدركت واختمرت.

وينطوي تحت اسم الخمر كلُّ مسكر؛ لقوله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا، فمات وهو يُدمنها، لم يتب منها، لم يشرَبْها في الآخرة»، وفي لفظ «حُرِمَها في الآخرة، فلم يُسْقَها». رواه مسلم.

ولا خلاف بين أحد من الأئمة في أن الخمر حرام، لِمَا ورد في ذلك من الكتاب والسنة. فأما ما ورد في الكتاب، فهو ما نزل من قول الحق سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ**

الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

وأما ما ورد من السنة في ذلك؛ فمنه ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من مات وهو مدمن خمر لقيَ الله وهو كعابد وثن»، وقال ﷺ: «لا يدخل الجنةَ مدمنُ خمرٍ».

وقال ﷺ فيما رواه أبو هريرة عنه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن». أخرجه البخاري.

وابن الوردي في هذا البيت يواصل دعوته في إصلاح أهل عصره الذين تفشَّى بينهم هذا الداء وغيره - كما أسلفنا - فيقول:

عليك بترك الخمر والابتعاد عنها إن كنت فتًى كاملَ الفُتُوَّة؛ إذ لا يليق بمن هو كذلك أن يشرب ما يُذهب عقلَه، ويجعله أشبه بالمجنون، وهل هناك عاقل يسعى بقدميه إلى الجنون؟!

وكأن ابن الوردي بذلك ينبه إلى آفات الخمر. وأُولى هذه الآفات أنها تُذهب أفضلَ ما في الإنسان، وهو عقله، وإذا غاب العقل قَبُحَ الحَسَنُ وحَسُنَ القبيح، قال أحدهم:

اسقِنِي حتى تراني
حَسَناً عندي القبيحُ

وقال آخر:

اسقني صِرفاً حُمَيَّا
تترك الشيخَ صَبِيَّا

وتُـرِيـه الـغَـيَّ رشـــــــــداً
وتُريـه الرُّشْـــدَ غـــيًّـــا[١]

وقال أبو الطيب المتنبي:

رأيـت المُـدامـــــةَ غـــلاَّبَـةً
تُهـــيِّجُ للمـــرء أشـــواقَـــهُ
تُـسـيءُ مِـنَ المرء تـأديبَـــــه
ولـكـن تحـــسِّنُ أخـــلاقـــهُ
وأنـفَـسُ مـــا لـلفـــتى لُبّـــه
وذو اللُّـبِّ يـكـره إِنْفَـــاقَـــهُ
وقــد مِـتُّ أمسِ بـهـا مـيـتـةً
ومـا يـشـتـهي المـوتَ مَنْ ذاقـهُ

ومن النكت الطريفة في هذا المجال: ما قالوه في سبب تسمية مشارب الخمر بالنديم من أن الرجل معَاقرَ الكأسَ إذا سكر تكلّم بما يندم عليه، وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه «نادمه»؛ لأنه فعل مثل فعله[٢].

وقد عرف مدمنو الشراب بقلة الحفاظ على المودة؛ ولذلك قيل: صاحب الشراب صديقك ما استغنيتَ حتى تفتقر، وما عُوفيت حتى تُنكَبَ.

ووصف أحد الشعراء أصحاب الكأس، فقال:

أرى كلَّ قـومٍ يحـفظون حـريـمَـهم
ولـيس لأصـحـاب النبـيـذ حَـريمُ

---

(١) الصرف: الخمر الخالصة. الحميا: سورة الخمر وشدتها.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري جـ ٤ ص٨٣.

إذا جئتَهم حيَّوكَ ألفاً ورحَّبوا
وإنْ غبتَ عنهم ساعةً فذميمُ
إخاؤهمُ ما دارتِ الكأسُ بينهم
وكلُّهم رثُّ الوِصالِ سَؤُومُ

والخمر أم الكبائر؛ لأن العقل إذا ذهب، فصاحبُه خليقٌ بأن يصنع أي شيء وكل شيء. قيل: سقى قومٌ أعرابية مسكراً، فقالت: أيشرب نساؤكم هذا الشراب؟ قالوا: نعم، قالت فما يدري أحدُكم من أبوه.

وقيل لأعرابي: ما لك لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقال الحسن: «لو كان العقل عرَضاً، لتغالى الناس في ثمنه؛ فالعجب لمن يشتري بماله شيئاً ليشربه فيذهب عقله». وقول الحسن البصري هذا قريبٌ مما قصد إليه ابن الوردي في بيته.

ولأن الخمر هذا شأنُها، فقد حرَّمها بعضُ عقلاء الجاهلية على أنفسهم، وقيل: إن أول من حرم الخمر في الجاهلية على نفسه قيس بن عاصم؛ ذلك أنه نزل على تاجرِ خمرٍ، فقال له: أصبحني قدحاً ففعل، فقال: زدني ففعل، حتى سقاه ثلاثة أقداح، فقال زدني، فقال: أنا تاجر صاحب ربح، فوثب عليه، فأوثقه إلى دوحة في داره، وأنهَبَ ماله وخمره، وكلَّمته أختُه فلطمها، وقال للتاجر: افْدِ نفسَك، فلما صحا من سكره، ورأى سوء ما صنع حرَّم الخمر على نفسه[1]، وقال:

---

(١) قرأت في كتاب المستطرف ص٥٥٦ أنه ورد في سبب تحريم قيس للخمر أنه شرب يوماً، فغاب عقله، فراود ابنته أو أخته فمنعوه، فلما أفاق وأُخبر بذلك، حرَّم على نفسه الخمر.

رأيت الخمرَ صالحةً وفيها
خلائقُ تفضحُ الرجلَ الكريمَا
فلا والله أشربُها صحيحاً
ولا أُسقَى بها أبداً سقيما
ولا أُعطى بها ثمناً حياتي
ولا أدعُو لها أبداً نديما
فإنَّ الخمرَ تفضحُ شاربيها
وتَجْشِمهُمْ بها الأمر العظيما
إذا دارت حُمَيَّاها تعلَّت
طوالعَ تفسد الرجل الحكيما[1]

وممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية أيضاً: عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل له: «ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية ولا حرج عليك؟ قال: إني رأيتها تُذهب العقل جملةً، وما رأيت شيئاً يذهب العقل جملةً ويعود جملةً»[2].

وممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية: عثمان بن مظعون، وقال في ذلك: لا أشرب شراباً يُذهب عقلي، ويُضحكُ بي مَنْ هو أدنى مني، وأزوِّج كريمتي من لا أريد[3].

---

(١) الممتع في صنعة الشعر ص٤٢.
(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٤ ص٨٤.
(٣) الممتع في صنعة الشعر ص٤٥.

وممن حرمها على نفسه أيضاً: عفيف بن معدي كرب، وقال في ذلك:

وقـالـت لـيَ هَلُمَّ إلى التـصـابي
فـقلت: عَـفَـفْتُ عـمَّا تعلمـينا

وودعـتُ القِـداحَ وقـد أراني
لهـا في الدهر مـشـغُـوفـاً رهينا

وحـرّمت الخـمـور عليَّ حـتى
أكـون بقَـعْـرِ ملحـودٍ دفـينا

وقيل: إنه من أجل ذلك سمي عفيفاً، وكان اسمه شراحيل[١].

ومنهم أيضاً: عبدالله بن جدعان التميمي، وقيل في سبب تركه لها: إنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي، فأصبحت عين أمية مخضرةً، فخاف عليها الذهاب، فسأله عبدالله: ما بال عينك؟ فقال: أنت صاحبها، أصبتها البارحة. فقال: وبلغ مني الشراب ما أبلغُ معه من جليسي هذا المبلغ، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقال: الخمر عليَّ حرام، لا أذوقها أبداً، وقال فيها:

شربت الخمر حتى قال صَحْبِي
ألستَ عن السُّقـاةِ بمستـفـيقِ

وحـتى مـا أُوسَّـدُ في مـبـيتٍ
أنامُ به سوى التربِ السحيقِ[٢]

---

(١) الممتع في صنعة الشعر ص٤٦.

(٢) نهاية الأرب جـ ٤ ص٨٨.

وكثيرٌ هم الذين أدركو قُبح الخمر وخُبثَها في الجاهلية، فحرموها على أنفسهم قبل أن ينزل بذلك شرع. فإلى جانب من سبق أن ذكرنا؛ هناك: صفوان بن أمية الكتامي، والعباس بن مرداس السُّلَمي، وسعيد بن ربيعة بن عبد شمس، وورقة بن نوفل، وقائمة الأسماء طويلة، لعل هذه أبرزها[١].

ونورد عليك بعض ما قاله الشعراء في ذم الخمر لتقفَ على آفاتها، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

ولولا ثلاثٌ هن في الخمرِ لم يكن
لها ثمن مِنْ شاربٍ حين يشربُ
لها نَزَفٌ مثلُ الجنونِ، ومصرعٌ
دَنِيٌّ، وأن العقل يَنْأَى ويَعْزُبُ

وقال آخر:

من تقرعِ الخمرُ الذميمةُ سِنَّهُ
فلا بد يوماً أن يُرِيبَ ويجهلا
فلم أرَ مشروباً أخَسَّ غنيمةً
وأوضعَ للأشرافِ منها وأخملا
وأجَدَرُ أن تلقى حليماً يَعُبُّها
ويشربُها حتى يَخِرَّ مُجَدَّلا

وقال آخر:

---

(١) نهاية الأرب جـ ٤ ص٨٨ وما بعدها.

تركتُ الخمور لشُرَّابها
وحُلْوَ الطِّلاء وحَرَّ السَّكَرْ

وقالوا: شفاؤك في شَرْبةٍ
من الخمر شُجَّت بماء خَصِرْ

فقد كذبوا ما شفاءُ الكريم
بِشرٍّ يُعَلُّ به بعد شَرْ

وقال عامر بن الظَّرِب العدواني في صفتها:

سَآلَةٌ للفتى ما ليس في يده
ذهَّابة بعقول القوم والمال

أقسمتُ بالله أسقيها وأشربُها
حتى يُغَيِّبَ تُربُ الأرض أوصالي[(١)]

وقال آخر:

بئس الشرابُ شرابٌ حين تشربه
يُوهي العظامَ وطَوْراً مُوهِنُ العصبِ

إني أخاف مليكي أن يعذِّبَني
وفي العشيرة أن يُزرِي على حَسَبي

٦- واتَّق الله فتقوى الله ما
جَاوَرَت قلبَ امرئٍ إلا وَصَلْ

(١) الممتع في صنعة الشعر ص٤٦، وقوله: أقسمت بالله أسقيها وأشربها؛ معناه: أقسمت بالله لا أسقيها ولا أشربها، على إسقاط حرف النفي، وهذا أسلوب معروف في اللغة.

٧- ليس مَنْ يقطعُ طُرقاً بَطَلاً
إنَّما مَنْ يتَّقي اللهَ البَطَلْ[١]

ينصح ابن الوردي في هذين البيتين بتقوى الله؛ فإنها ما حلت في قلب إنسان إلا أوصلتْه إلى رضا الله، كما قطع بذلك الحق على نفسه في قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٢]، وفي قوله عز من قائل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

ويمضي ابن الوردي، فيبين أن الشجاع الحق هو الذي يتقي الله، لا من يسعى فساداً في الأرض، ويسخِّر قُوَّته التي منحها الله له في الإيذاء والاعتداء على الآمنين.

وقد وردت لفظة «اتقى» ومشتقاتها في القرآن الكريم ٢٥٩ مرة، والذي يتتبع الآيات الكريمة التي وردت فيها هذه اللفظة يجد أن التقوى هي جماعُ الإيمان عقيدةً وعملاً!.

فالمتقون هم الذين آمنوا بالغيب، وبما أُنزل على الرسول ﷺ وما أُنزل على مَنْ قبلَه، وأيقنوا بالآخرة. هذا من حيث العقيدة. ومن حيث العمل: هم الذين يقيمون الصلاة، وينفقون من أموالهم على الفقراء والمحتاجين. نرى ذلك في قوله سبحانه: ﴿ الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

(١) التقوى لغة: هي فرط الصيانة، وشرعاً: هي أن يقي الإنسانُ نفسَه تعاطيَ ما يستحق به العقوبةَ من فِعل أو ترك. البطل: الشجاع.

[البقرة: ١ - ٤]، وفي آية أخرى من السورة نفسها يُضاف إلى هذه الأعمال: أنهم هم الموفون بالعهد، والصابرون في البأساء والضراء، وأنهم هم الذين صدقوا الله. ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والمتقون أيضاً هم الذين يبادرون إلى الجهاد دون تثاقُل، كما نرى في قول الحق سبحانه: ﴿ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٤٤].

وهم أيضاً الذين يعظِّمون شعائر الله ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

وهم أيضاً الذين يتمسَّكون بدينهم، ويصبرون على الأذى؛ يقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ بعد أن قص عليه طرفاً من قصة نوح وابنه: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

ويصفهم رب العزة سبحانه بأنهم لا يريدون عُلُواً في الأرض ولا فساداً؛ ذلك في قوله: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

التقوى - إذن - هي الالتزام بالنهج الإيماني عقيدةً وعملاً، ولن يتحقق

هذا الالتزام للإنسان إلا إذا قاوم نوازع الفساد ودواعيَه في نفسه، وتلك مشقة لا تَعْدِلها مشقة. أما ذلك الإنسان الذي يستجيب لنوازع الشر، ويلبي نداء غرائزه، فيتعدَّى ويُفسد في الأرض، فليس في عمله من البطولة شيء. وصدق الله حيث يقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

٨- صَدِّق الشَّرعَ ولا تركَنْ إلى
رجُلٍ يَرْصُدُ بالليلِ زُحَلْ[١]

في هذا البيت يقول ابن الوردي: إنه ينبغي على المؤمن أن يصدق ما أتى به الشرع الحنيف وأن يعتقد أن ما يصيبه من خير أو شر، فهو بقضاء الله سبحانه، وأن ما يجري على الأرض من أحداث هو أيضاً بقدر الله، لا بسبب حركات الكواكب والنجوم.

وابن الوردي في ذلك إنما يدل على النهج الإسلامي القويم، الذي يتطلّب من المسلم الإيمانَ بأن المدبرٌ للخلق هو الله سبحانه، وأن الكواكب والنجوم مسخَّرات بأمره؛ كما قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

وكما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ

(١) الشرع: هو الدين المشروع لنا، ويريد ابن الوردي صاحب الشرع: أي الرسول ﷺ.
تركن: تميل، وزُحل: أحد الكواكب السبعة.

الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢].

وخُلق المسلم يقتضي التسليم بقضاء الله سبحانه وقَدَرِه، وأن يكون قولُه ما أنزل رب العزة : ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [التوبة : ٥١]، وأن يكون إيمانُه أن ما أصابه في نفسه أو في ماله، فهو بكتاب من الله : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [الحديد : ٢٢]، وأن يكون يقينُه أن الكاشفَ للضُّرِّ، والمقدِّرَ للخير هو اللهُ لا سواه! ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [الأنعام : ١٧].

وإذا اعتقد المسلم ذلك، ثبت لديه أن حديث المنجمين محضُ خرافة، فضلاً على أنه شرك بالله سبحانه، ونصبُ أنداد له من النجوم.

وليعلم المسلم أن التنجيم من مذهب مشركي الصابئة، وهم قوم إبراهيم عليه السلام، الذين ناظرهم وحاجَّهم، فألجمهم بالبرهان الإلهي الساطع، وكانوا يعبدون الشمس، ويزعُمون أنها من الملائكة، وأن لها نفساً وعقلاً، واتخذوا لها صنماً، وجعلوا لها بيتاً صاموا له وصلَّوْا، ووقفوا عليه، ومنهم طائفة عبدت القمر، وزعمت أنه هو المدبِّر للعالم السفلي، واتخذوا له صنماً سجدوا له وصاموا، وضربوا بالمعازف بين يديه، وطائفة ثالثة اختارت بعض الكواكب فعبدته، وصنعت له ما صنع عُبَّاد الشمس والقمر، وكل هؤلاء عبدة أصنام.

وإذ قد تبين أن النجوم خَلْقٌ من خلق الله، يجري عليها من قضائه

سبحانه ما يجري على بقية خلقه، وإذ قد تبين أن التنجيم بقية من دين الصابئة، أفيَحِقُّ للمسلم - بعد ذلك - أن يركن إلى حديث منجم؟ وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «من اقتبس علماً من النجوم، اقتبس شُعبةً من السِّحر زاد ما زاد». رواه أبو داود بإسناد صحيح.

وعنه ﷺ أنه قال: «من أتى عرافاً، فسأله عن شيء، فصدَّقه، لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً». رواه مسلم.

ويقول الشاعر:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى

ولا زاجِراتُ الطير ما الله صانع

ومِمَّا يُروى في هذا الصدد: أن الخليفة المعتصم العباسي لَمَّا عزم على فتح «عمورية» نهاه المنجمون، وقالوا له: عليك أن تتمهَّل؛ فإنها لن تفتح إلا في أوان نضج التين والعنب؛ أي في الصيف، ولكن الخليفة المعتصم لم يُصْغِ إليهم، وتوجَّه ففتحها وحقق النصر.

وقد وصف الشاعر «أبو تمام» هذا النصر في قصيدة طويلة رائعة بدأها بالسخرية من المنجمين وكتُبهم، فقال:

السيف أصدق إنباءً مِنَ الكتب

في حدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللعب

أي: إن سيف المعتصم كان أصدقَ حديثاً من كتب المنجمين، وحدّه هو الذي استطاع أن يفصل بين ما هو جادٌّ من الفعل، وبين ما هو لعب متمثِّل في أقوال المنجمين وتنبؤاتهم. ويتوجه بالحديث إلى المنجمين في سخرية شديدة لاذعةٍ، فيقول:

أين الروايةُ بل أين النجومُ وما
صاغوه من زُخْرُف فيها ومن كذبِ
تخرُّصاً وأحاديثاً ملفَّقةً
ليست بنَبْعٍ إذا عُدَّتَ ولا غربِ
عجائباً زعموا الأيَّام مُجْفلَةً
عنهن في صَفَرِ الأصفارِ أو رجبِ
وخوَّفوا الناس من دهياءَ مظلمةٍ
إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنبِ
يقضون بالأمر عنها وهي غافلةٌ
ما دار في فَلَكٍ منها وفي قُطبِ

وفي النهي عن سماع أقوال المنجمين يقول أبو فراس الحمداني:

دع النجومَ لعرَّافٍ يعيش بها
وانهض بعزمٍ قويٍّ أيها الملكُ
إن النبيّ وأصحابَ النبيِّ نَهَوْا
عن النجوم وقد أبصرتَ ما ملكوا

وصدق من قال:

لا تركَنَنَّ إلى حديثِ منجِّمٍ
وكِلِ الأمورَ إلى القضاء وسلِّمِ
واعلَمْ بأنك إن جعلتَ لكوكبٍ
تدبيرَ حادثةٍ فلست بمسلمِ

٩- حــارَتِ الأفكارُ في قــدرةِ مَنْ
قَــــدْ هدانا سُــبْلَهُ عـــزَّ وجلْ

يقول الشاعر: إن الأفكار حارت في قدرة الله الذي بيَّن لنا طرق الهداية الموصلة إلى رحمته ورضوانه، وحَيرةُ الأفكار إنما هي دليل على عظيم القدرة، وعلى عدم الإحاطة بآياتها.

وهذا المعنى قريب مما ترجم عن الشاعر عمر الخيام من قوله:

يا مَنْ يحارُ الفهمُ في قدرتِكْ
وتطلبُ النفسُ حِمَى طاعتِكْ
أسْكَرني الإثمُ ولكنّني
صحوتُ بالآمال في رحمتِكْ

ولعل هذه الحيرة إزاءَ قدرة الله سبحانه التي تحدَّث عنها الشاعران تذكرنا بأبيات أحمد شوقي في العصر الحديث، في قصيدته الهمزية «كبار الحوادث في وادي النيل»، التي صوَّر فيها حيرة البشرية وتخبُّطها في أزمان الجَهالة؛ إذ ذهبت تطلب الخالق، فضلَّت وعبدت المخلوق من كواكبَ وتماثيلَ وجبالٍ ونبات وملوك وبحار؛ يقول:

ربٌّ شُقْتَ العبادَ أزْمَانَ لا كتـ
ـبٌ بها يُهتَدَى ولا أنبياءُ
ذهبوا في الهوى مذاهبَ شَتَّى
جمعَتْها الحقيقةُ الزهراءُ
فإذا لقَّبوا قويًّاً إلهاً
فله بالقوى إليك انتهاءُ

وإذا آثَرُوا جـمـيـلاً بتَنْزيـ
ـهٍ فـإن الجـمـال منك حِـبـاءُ
وإذا أنـشـؤوا الـتـمـاثيلَ غُـرَّاً
فـإليـك الـرمـوزُ والإيماءُ
وإذا قـدَّروا الـكـواكـبَ أربـا
بـاً فـمـنـك الـسَّنا ومنك الـسَّناءُ
وإذا ألَّهـوا الجـمـال سُـجُـوداً
فـالمرادُ الجـلالـةُ الـشَّـمَّـاءُ
وإذا تُـعـبَـدُ الملوكُ فـإن الـ
ـملك فـضـلٌ تحـبـو به مَنْ تـشـاءُ
وإذَا تُعْـبَـدُ الـبـحـارُ مع الأسـمـاك
والـعـاصـفـاتُ والأنـواءُ
وسـبـاعُ الـسـمـاء والأرضُ
والأرحـامُ والأمَّـهـاتُ والآبـاءُ
لـعُـلاك المـذكـراتُ عـبـيـدٌ
خُـضَّـعٌ، والمؤنـثـاتُ إمـاءُ
جُـمِعَ الـخَلْقُ والـفـضـيلةُ سـرٌّ
شَفَّ عنه الحـجـابُ فـهـو ضـيـاءُ

وهذه الـحَيرة تذكِّرنا بحيرة إبراهيم عليه السلام في سعيه إلى الحقيقة، وفي طلبه للهداية، وقد صورتها هذه الآيات الكريمة: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ**

رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦ - ٧٩].

وفي الكتاب العزيز آيات كثيرة تلفتنا إلى بديع صنع الخالق وعظيم قدرته؛ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦ - ١١].

ويلفتنا سبحانه إلى بديع صنعه فينا، فيقول: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١].

ويعرض سبحانه علينا عملية الخلق، لافتاً إيانا إلى ما فيها من إعجاز، جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

ولقد وقف العلم الحديث أمام هذه الآيات، وأمام ما ورد فيها من دقة محكَمة مفحمة مبهوتاً. وآياتُه وآلاؤه سبحانه لا تحصى ولا تعدُّ، وصدق الذي قال:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ
تدلُّ على أنه الواحدُ

ومن لطف الله بعباده أنه لم يتركهم لعقولهم، ولكنه أرسل إليهم رسله يتداركونهم بالهداية والإرشاد، حتى لا تذهب بهم الحَيرة مذاهب الضلال؛ يقول سبحانه: **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** [النحل: ٣٦].

جنَّبَنا الله الضلالة، وألهمنا الرشاد، وجعلَنا ممن هداه إلى سبله.

١٠- كُتب الموتُ على الخلقِ فكم
فلَّ مِنْ جمعٍ وأفنى مِنْ دُوَلْ

١١- أين نمرودُ وكنعانُ ومَن
مَلَكَ الأرضَ وولّى وعَزَلْ؟

١٢- أين عادٌ؟ أين فرعونُ ومَنْ
رَفَعَ الأهرام؟ من يَسْمَعْ يَخَلْ!

١٣- أين من سادُوا وشادُوا وبَنَوا؟
هلكَ الكلُّ فلم تُغْنِ القُلَلْ

١٤- أين أربابُ الحِجَا أهلُ النُّهَى؟
أين أهلُ العلم والقــــومُ الأُوَل؟
١٥- ســيـعـيــد الله كــلاً منهمُ
وسيَجزي فاعلاً ما قد فعل[١]

يبين ابن الوردي في هذه الأبيات أن الموت حتْمٌ على الخلق، مقدَّر. وكم هزم جموعاً وأدال دولاً، فلم تبق لهم باقية. ويمضي الشاعر في تأكيد هذه الحقيقة، فيتساءل عن مصير العُتاة والطغاة وأهل الجاه وأهل العلم: أين ذهبوا؟ وإلامَ انتهوْا؟ فأين نمرود؟ وأين كنعان؟ وأين عاد؟ بل أين فرعون الذي بنى وشيَّد، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾؟ أين كل أولئك الذين بنوْا وأعلموا، لقد ذهبوا جميعاً، لم تُغنِ عنهم حصونهم وقلاعهم، وذهب معهم كذلك أرباب العلم والرأي. ويعود الشاعر، فيقرر أن هؤلاء جميعاً مبعوثون ليوم يجزي الله فيه كلاً على عمله.

والشاعر في أبياته هذه يصدر عن منطلق قرآني بحْتٍ من تقريرٍ لحقيقة الموت والبعث، حتى من ذِكره عُتاة الأمم البائدة نجد خَبَرَهُ في القرآن الكريم، وهذا أمر طبيعي، وقد عرفنا مكانة ابن الورديّ من الفقه والزهد.

---

(١) فلّ: هزم. نمرود: هو نمرود بن كوش بن كنعان، الذي كان على عهد إبراهيم عليه السلام، وهو الذي أراد إحراقه، وكان - فيما قيل - من أقوى ملوك الأرض وأعظمهم. وعلى هذا؛ فكنعان هو جد نمرود، أو لعله جد الكنعانيين الذين كانوا يقطنون أرض كنعان. وعلى أيٍّ، فالمعنى لا يختلف.
من يسمع يخل: من يسمع يظن ويتخيل، القُلَل: مفردها قُلَّة، وهي الأعلى من كل شيء، ويقصد بها الشاعر: الحصون أو القلاع، الحِجا: الرأي. النُّهى: الرأي أيضاً.

ولكي نتمثَّل ذلك، نعرض عليك آياتِ الكتاب العزيز التي صدر عنها ابن الوردي؛ يقول سبحانه في تقرير حقيقتي الموت والبعث: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥ – ١٦].

ويعرض علينا سبحانه مصائر العُتاة والجبابرة، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤].

ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ – ١٤].

ويدعونا سبحانه أن نتدبَّر عاقبة هؤلاء العُتاة، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

والقرآن الكريم حينما يضع أمامنا هاتين الحقيقتين: الموت والبعث، ويعرض علينا مصارع العُتاة والجبابرة، إنما يدعونا إلى أن ننظر إلى الدنيا على أنها رحلة قصيرة، وأننا فيها على سفرٍ، وخير ما نتزود به هو تقوى الله، كما قال الرسول ﷺ: «الكَيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبَع نفسه هواها، وتمنى على الله عز وجل». رواه الترمذي وابن ماجه.

وقد دعا ﷺ إلى أن يكون الموتُ عبرةً لنا – نحن الأحياء – فلا نتكالب على الدنيا، ولا نشتغل بجمع تراثها وحُطامها. واسمع لبليغ قوله ﷺ في إحدى خطبه: «أيها الناس، كأن الموت فيها على غيرنا قد كُتب، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب، وكأن الذي نشيِّع من الأموات سَفْرٌ عما قليل إلينا راجعون، نبوِّئهم أجداثهم، ونأكل من تراثهم كأنا مخلّدون بعدهم، ونسينا كلَّ واعظة، وأمِنَّا كل جائحة».

ومما رواه الإمام أحمد على لسان عيسى عليه السلام، في كتاب «الزهد»، حينما سئل عيسى عليه السلام عن أولياء الله عز وجل: «الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، والذي نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها»[1].

وفي معنى قول ابن الوردي يقول عمارة بن عقيل:

وأدركت مِلْءَ الأرض ناساً فأصبحوا
كأهلِ الديار قوَّضُوا فتحمَّلوا

---

(١) كتاب الزهد ص٥٧.

وما نحن إلا رفقةٌ قد ترحَّلَت
وأخرى تُقَضِّي حَاجَها ثم ترحلُ

ويقول المتنبي مصوراً النهاية المحتومة لكل إنسان:

لا بد للإنسان مِنْ ضجعة
لا تقلب المُضْجَعَ عن جَنبِه
ينسى بها ما كان من عُجْبِه
وما أذاقَ الموتُ مِنْ كربِه
نحن بنو الموتى فما بَالُنَا
نعافُ ما لا بدَّ من شُرْبِه

ويمضي في القصيدة نفسها، فيبين أن الموت لا يفرِّق بين عظيم وحقير، أو بين عالم وجاهل؛ فجالينوس عالم الطب اليوناني لقيَ الموتَ كما يلقاه راعي غنم مغمور فقير، بل وربما كان راعي الغنم أسعدَ منه حالاً، فمدَّ الله له في العمر وزاده في حياته أمناً:

يموت راعي الضَّأن في جهله
مِيتَةَ جالينوسَ في طبِّه
وربما زادَ على عمرِهِ
وزاد في الأمنِ على سِرْبِه
وغايةُ المفرطِ في سِلْمِه
كغاية المفرطِ في حربِه

أما أبو العلا المعري، وقد رأى مصارع الماضين، وتيقَّن مِنْ مصارع الأحياء والقادمين، فإنه يقف متأملاً حقيقة الموت الأزليَّة، منتهياً إلى أن

الموت ليس هو النهاية، وإنما هو معبر إلى حياة أخرى، فيها الشقي وفيها السعيد، فيقول:

خُلِقَ الناسُ للبقاءِ فَضَلَّت
أمَّةٌ يَحسبونهم للنَّفادِ
إنما يُنقَلون مِنْ دارِ أعمال
إلى دار شقوة أو رَشَادِ

وفي الإطار الذي دار فيه ابن الوردي دار مِنْ قبله أبو الطيب الطاهري؛ إذ يقول:

أوْدَى ملوكُ بني ساسان وانقرضوا
وأصبح المُلْكُ ما ينفكُّ ينتقضُ
مَنْ لان مرقدُه فالدهر مُبْدلُه
عنه فراشاً له مِنْ تحته قَضَضُ

ومن أجمل ما قيل في هذا المعنى قصيدة الشاعر الأندلسي أبي البقاء الرَّندي في رثاء بعض ما سقط من مدن الأندلس في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وأبيات ابن الوردي تكاد تقترب منها اقتراباً شديداً في النسيج والمعنى، يقول الرندي:

لكل شيءٍ إذا ما تَمَّ نقصانُ
فلا يُغرُّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدتُها دولٌ
مَنْ سرَّه زمنٌ ساءته أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ
ولا يدومُ على حال لها شانُ

أين الملوكُ ذوو التيجانِ مِنْ يَمنٍ؟
وأين منها أكاليلٌ وتيجانُ؟
وأين ما شاده شدّادُ في إِرَمٍ؟
وأين ما سَاسَهُ في الفُرسِ ساسانُ؟
وأين ما حازه قارونُ من ذهب؟
وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ؟
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ له
حتى قَضَوْا فكأنَّ القومَ ما كانوا
وصار ما كان من فلكٍ ومن ملك
كما حكى عن خيالِ الطَّيفِ وسنانُ

ويقف شوقي أمام الموت ملتمساً العبرة والعظة، وموقفُه شبيهٌ بموقف ابن الوردي في تساؤله عن مصائر البائدين، وإن اختلفت الأسماء؛ يقول:

مَنَعَ اللُّبْثَ وإن طالَ المدَى
فلكٌ ما لعصاه مُسْتَقَرْ
دائر الدولاب بالناس على
جانبَيْه المُرْتَقَى والمُنْحَدَرْ
ومحا «الحمراء»[1] إلا عُمُدا
نزعها من عضد الأمر عَسِرْ
أين روميةُ؟ ما قيصرُها؟
ما لياليها المرنات الوَتَرْ

(١) الحمراء: قصر من قصور الأندلس.

أين «وادي الطلح»[1] والـلائي بـه
من دُمى يسحبن في المِسْكِ الحبر[2]
أين نابليون ما غاراتُه
شنها الدهرُ عليه من غِيَرْ

على أنَّ ابن الوردي وغيره من الشعراء الإسلاميين، الذين سقنا طرفاً من أشعارهم، حينما كانوا يتحدثون عن الموت ويقفون عنده، إنما كانوا يلتمسون العبرة والعظة، وينبهون إلى أن الحياة إلى زوال، وإلى أن هناك حياةً أخرى فيها البقاء، ينبغي على الإنسان أن يعمل لها، ويُعد لها العدة. صحيح أن الموت له رهبة، ولكنه لا يمثل للإنسان المؤمن كارثة؛ لأن هناك بعده ما أعدّه الله لعباده المؤمنين من نعيم مقيم.

ويحضرنا هنا قول معاذ بن جبل حين احتضر: «مرحباً بالموت، مرحباً بزائرٍ جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكرْي الأنهار، ولا لَغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالركب في حِلَقِ الذكر».

هذا خُلُق المؤمن، وهذه عقيدته. أما هؤلاء الذين يتنادَوْن اليوم بالمبادئ الفاسدة، والأفكار المهترئة، ويتسمَّون بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان؛ من شيوعية ووجودية وعبثية، ويعتقدون أن الموت هو النهاية، وأن الحياة

(١) وادي الطلح: متنزَّه بأشبيلية بالأندلس، كان للمعتمد بن عباد.

(٢) الحبر: جمع حبرة، وهي من برود اليمن.

هي البداية والغاية، وأن الإنسان قدم إلى الكون مجبراً، ويمضي مجبراً، فطبيعي أن يمثل الموت لديهم كارثةً محقَّقة؛ لأنهم أسلموا أنفسهم للشهوات، وباعوا أيامهم للعبث، فخسروا دنيا لم يجنوا منها شيئاً، وآخرةً لم يعملوا لها، ولم يعتقدوا بها، وهم في كل ذلك صورة مكرورة لمن كانوا متبجِّحين بالكفر على عهد رسول الله ﷺ، ويقولون فيما حكاه القرآن الكريم على لسانهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ولكن المصير الذي ينتظرهم يتمثَّل في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

ومن أسف أن هذه المذاهب الفاسدة أفرزت بعض أشعار مريضةٍ في أدبنا العربي المعاصر، فرُحنا نسمع عن شعراءَ ادَّعوْا أنهم يعبِّرون في شعرهم عن أزمة الإنسان المعاصر، وعجزه أمام الموت الذي يهجُم عليه، فينتهب لذائذه، ويبدِّد رغائبه، فيقول أحدهم:

جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيْتُ
ولقد أبصرتُ قُدَّامي طريقاً فمشيْتُ
وسأبقى سائراً إن شئتُ هذا أم أبيْتُ
فمتى تعلم روحي كُنْهَ روحي
لست أدري...

ويقول الشاعر نفسه، وقد غشت الشكوكُ روحَه:

حامت على روحي الشكوكُ كأنها
وكـأنهنَّ فـريسـةٌ وصـقـورُ
ولقـد لجـأتُ إلى الرجـاءِ فـعـقَّني
أمـا الخـيـالُ فـخـائـبٌ مـدحـورُ
يـالـيـلُ أيـن الـنـورُ؟ إنِّـي تـائـهٌ
مـرْ ينبـثقْ أم ليسَ عندك نُورُ
أكَـذا نموتُ وتنقـضي أحـلامُنَا
في لحظةٍ وإلى التـرابِ نصـيـرُ
خـيـرٌ إذن منا الأُولى لـم يُولـدوا
ومِنَ الأنَامِ جنادلٌ وصـخـورُ

أرأيت أيَّ كارثة يحملها الموت؟ أرأيت أي حيرة تغشى حياة هؤلاء؟ أرأيت إحساسهم بالقهر والجبر، وحيرتهم التي أفرغت حياتهم من كل معنى. وبوْنٌ بعيد بين هذا المنطلق ومنطلق ابن الوردي وأقرانه من صحاح العقيدة.

وإنما سقنا هذين النموذجين من إفراز هذه المذاهب الفاسدة؛ لنلفت إلى ما يقرع أسماعنا من بعض الأقوال التي تُغري بعض شبابنا بترديدها، والانسياق وراء صورها الباهتة المريضة، متخيِّلين أن هذا هو الجديد.

١٦- أيْ بنيَّ اسمع وصـايا جَمَعَت
حِكَمـاً خُـصَّتْ بهـا خـيـرُ المِلَلْ
١٧- اطلُبِ العلمَ ولا تكسَلْ فـمـا
أبعـدَ الخـيـر على أهلِ الكسلْ

١٨- واحتفلْ للفقه في الدين ولا

تشتغِلْ عنه بمالٍ وخَوَلْ

١٩- واهجُرِ النومَ وحَصِّله فمن

يعرف المطلوبَ يَحقِر ما بَذَلْ

٢٠- لا تقل قد ذهبتْ أربابه

كلُّ من سار على الدربِ وصلْ

٢١- في ازديادِ العلم إرغامُ العِدى

وجمالُ العلم إصلاحُ العملْ(١)

يبدأ ابن الوردي وصاياه بالحث على طلب العلم، وعدم التواني أو التكاسل في طلبه، فما أصاب الخيرَ كسولٌ، ثم يثني الشاعر وصاياه بالاحتفال بالفقه، والإقبال عليه، وعدم الانشغال عنه بعَرَض دنيوي، بالغاً ما بلغ. وكما نرى، فابن الوردي بدأه بالعموم، ودخل منه إلى الخصوص؛ فالعلم فيه عموم؛ إذ هناك من العلمْ ما هو ديني وما هو دنيوي. أما الفقه، ففيه تخصيص؛ إذ هو العلم الديني، والتخصيص بعد التعميم هنا فيه بيان للأفضلية، فكأن الشاعر أراد أن يقول: إن أفضل ما يشغَل به الإنسانُ نفسَه هو علم الدين والتفقُّه فيه.

ويمضي ابن الوردي، فيبين أن هذا المطلبِ مطلبٌ سامٍ رفيع، وعلى من يضعه نصب عينيه أن يهجُر النوم، ويحقر كلَّ ما يبذله؛ سواء أكان هذا

(١) احتفل للفقه: أقبل عليه واهتم به. والفقه لغة: هو الفهم، واصطلاحاً: هو العلم بالأحكام الشرعية. ومقصود الشاعر هو المعنى الاصطلاحي.
الخول: الخدم.

المبذول صحةً أم راحةً أم مالاً، كذلك فعلى من يطلب العلم أن يكون قويَّ العزم، لا ينتابه اليأس أو الضعف، ولا يتوهم أنه لن يبلغ ما بلغه العلماء الأوائل، فإنهم كانوا مثلَه، وساروا على الدرب نفسه حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه، وكل من سار على الدرب لا بد أن يصل إلى منتهاه، أو كما يقال في التعبير المحدث «إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة».

وفي البيت الأخير من هذا المقطع يلفت ابن الوردي إلى شيئين:

الأول: أن العلم يعطي صاحبه جلالة وهيبة، ويجعله يعلو على أعدائه ويذلهم، وهذا قولٌ صادق؛ فكم من إنسان ارتفع به العلم حتى تبوَّأ أرفع المناصب وأعلاها، ولولا العلم لصار هملاً، وما لنا نبعد وواقعنا المعاصر أكبر دليل على صحة هذا القول. إذا أخذنا العلم بمعناه العام، أكان الغرب الأوروبي يتيه بما يتيه به من قوة لولا ما امتلكه من أسباب العلم.

الثاني: أنه لا قيمة للعلم إذا لم يعمل به صاحبه، فشرُّ الناس عالم لا يعمل بعلمه، وقد قرَّع الله سبحانه علماءَ بني إسرائيل بأنهم لا يعملون بعلمهم، فيأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٤٤].

وعلى ذكر العلم والعمل يخطر على الذهن قولُ الشاعر:

لا تَنْهَ عن خلُق وتأتِيَ مثلَهُ

عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

ويخطر على الذهن قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إذا لم يعمل العالم بعلمه استنكف الجاهل أن يتعلَّم منه، وإن جمع العلم كلَّه».

وابن الوردي في هذه الوصايا يقبس من مشكاة الدين الحنيف، وقد نبَّه على ذلك بقوله: «حِكَماً خُصَّت بها خير المِلَل»؛ فالإسلام دين يدعو إلى العلم، ويحث على طلبه، يقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

ودعا الله سبحانه ألا يماري الإنسان فيما يجهل، وأن يسأل من يعلم عما يعلم؛ يقول عزَّ مِنْ قائل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وامتدح سبحانه العلماء بأنهم يخشون الله بما علموا من قدرته وآلائه، يقول سبحانه: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

من أجل ذلك كان للعلماء العلوُّ والمكانةُ، يقول سبحانه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وفي سورة الكهف يضع سبحانه لنا المثل في طلب العلم، وما ينبغي له من الصبر؛ وذلك في قصة موسى عليه السلام والعبدالصالح، فموسى - وهو النبي الذي اصطفاه الله - لم يستنكف أن يتبع الرجل الصالح ليتعلم منه، قائلاً في رجاء: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، ويعد الرجل الصالح أنه سيتحلى بالصبر: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩].

أما أحاديث الرسول ﷺ التي تدعو إلى العلم وتحث عليه، فهي

كثيرة؛ من ذلك:

ما رُوي عنه ﷺ أنه قال: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلاً»[1].

وقال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين. رجل آتاه الله مالاً، فسلَّطه على هَلَكَتِه في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»[2].

وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين»[3].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع».

وروى عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فإذا هو بمجلسين: أحدهما يذكرون الله تعالى، والآخر يتفقّهون، فقال رسول الله ﷺ: «كلا المجلسين على خير، وأحدهما أحبُّ إليَّ من صاحبه؛ أما هؤلاء، فيسألون الله تعالى ويذكرونه، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما المجلس الآخر، فيتعلمون الفقه ويعلِّمون الجاهل، وإنما بُعثت معلماً». وجلس إلى أهل الفقه[4].

والآثار في ذلك كثيرة. ولا يختلف اثنان على فضل العلم. ومن جميل ما قال بعض البلغاء: «تعلَّم العلم؛ فإنه يقوِّمك ويسودك صغيراً، ويقدِّمك ويسودك كبيراً، ويُصلح زيْفَك وفاسدك، ويرغم عدوك وحاسدك، ويُقوِّمُ

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري.

(٤) أدب الدنيا والدين للماوردي ص٥٢.

عِوَجك وميلك، ويصحح همتك وأملك»[1].

وقال بعض الشعراء:

وفي الجهل قبلَ الموتِ موتٌ لأهله
فأجسامُهم قبلَ القبورِ قبورُ
وإنَّ امرأً لم يَحْيَ بالعلم ميِّتٌ
فليس له حتى النشورِ نشورُ

وقيل لبزرجمهر: «العلم أفضل أم المال»؟ فقال: «بل العلم». قيل: «فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء»؟ قال: «ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال، وجهل الأغنياء بفضل العلم».

وعلى ذكر المال والعلم والمفاضلة بينهما قيل: «العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم يزيد بالإنفاق والمال ينقص بالإنفاق، والمال يُسرق والعلم لا تمتد إليه أيدي السُّرَّاق».

ومن طريف ما يُحكى: أن الوليد بن يزيد خرج حاجّاً ومعه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، فكانا ببعض الطريق يلعبان بالشطرنج، فاستأذن عليه رجل من ثقيف، فأذن له وستر الشطرنج بمنديل، فلما دخل سلَّم، فسأله حاجتَه، فقال له الوليد: أقرأت القرآن؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، شغلتني عنه أمور وهنات. قال: أفتعرف الفقه؟ قال: لا، قال: أفرويت من الشعر شيئاً؟ قال: لا. قال: أفعلمتَ من أيام العرب شيئاً؟ قال: لا. قال:

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٥٠.

فكشف المنديل عن الشطرنج، وقال: شاهك! فقال له عبدالله بن معاوية: يا أمير المؤمنين، قال: اسكت، فما معنا أحد[١].

أما العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، فلهم عذاب أليم يوم القيامة. قال ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه».

وعنه ﷺ أنه قال: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقى في النار، فتندلق أقتابه، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ أليس كنتَ تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» رواه البخاري ومسلم.

وقد عقد الإمام السبكيُّ فصلاً في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» على أمثال هؤلاء العلماء، نعى فيه على طائفة منهم تتخذ العلم تجارة لتكثير الأموال، وسُلماً إلى بلوغ المناصب. ومن بليغ ما قاله بهذا الصدد: «فأقلُّ درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخِسَّتها وكدورتها وانصرامها، وعِظَمَ الآخرة وصفاءها ودوامها، وأن يعلم أنهما متضادَّتان، وأنهما ضَرَّتان؛ متى أرضيتَ واحدةً أسخطت الأخرى، وكفّتا ميزان متى رجَحت إحداهما خفَّت الأخرى، وكالمشرق والمغرب؛ متى قرُبت من أحدهما بعد عن الآخر»[٢].

وقد ظل هؤلاء العلماء الذين نصبوا العلم شَرَكاً للمال، فقالوا ولم يعملوا، ووعظوا الناس ولم يعظوا أنفسهم مثاراً لسخرية الشعراء، قال أحد الشعراء:

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة جـ ٢ ص١٢١.

(٢) معيد النعم ص٦٧.

يا جاعلَ العلمِ له بازياً

يصطادُ أموالَ المساكينِ

احتَلْتَ للدنيا ولذّاتِها

بحيلة تذهب بالدينِ

فصرت مجنوناً بها بعدما

كنت دواءً للمجانينِ

وحول هذا يقول آخر:

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيرَه

هلاَّ لنفسك كان ذا التعليمُ

تصفُ الدواءَ من السقَامِ لذي الضَّنى

ومن الضنى مذكنتَ أنت سقيمُ

مازلت تَلْقَحُ بالرشاد عقولَنا

صفةً وأنت من الرشاد عديمُ

ابدأ بنفسك فانْهَهَا عن غيِّهَا

فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

فهناك تُقبل إن وعظتَ ويُقتَدَى

بالقول منك، وَيَنْفَعُ التعليمُ

وشبيه بذلك:

وعاملٍ بالفجور يأمرُ بالبِرِّ

كهادٍ يخوضُ في الظُّلَمِ

أو كطبيب قد شفَّه سَقَمٌ

وهو يُداوي من ذلك السَّقَمِ

يا واعظَ الناس غيرَ مُتَّعظ
ثوبَك طهِّرْ أولاً فلا تلُم

ولأن العالم قدوة، فهفوتُه مستعظَمة، وزلَّته لا تُغتفر، وصغائره في نظر الناس كبائر؛ يقول الشاعر:

أيها العالمُ إياك الزَّلَلْ
واحذرِ الهفوةَ والخَطْبَ الجَلَلْ
هفوةُ العالم مُسْتعظَمةٌ
إذ بها أصبح في الخلق مثلْ
وعلى زلَّتِه عُمدتُهم
فبها يَحْتَجُّ من أخْطَا وزلْ
لا تقل يستر علمي زلَّتِي
بل بها يحصُلُ في العلم خَلَلْ

وخطر العالم الذي لا يعمل بعلمه يتعداه إلى غيره، فيفعل الناس مثل ما يفعل اقتداءً به، ويحتجُّ بسلوكه من انحرف عن الطريق السوي، وشيئاً فشيئاً يضيع الحق، وينأى عن سبله السالكون. وقد عبر شوقي عن ذلك بقوله:

وإذا المعلمُ لم يكن عدلاً مشى
روحُ العدالة في الشباب ضئيلا
وإذا المعلمُ ساءَ لحظَ بصيرةٍ
جاءت على يده البصائرُ حُولا
وإذا أتى الإرشاد من سبب الهوى
ومن الغرورِ فسَمِّه التضليلا

أما إذا صان أهل العلم علمهم، وعملوا به؛ فإن الناس يضعونهم في المحل الأسمى، والمكان الأرفع. وصدق الشاعر إذ يقول:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عظَّموه في النفوس لعُظِّما

٢٢- جَمّل المنطق بالنحو فمَنْ

يُحْرمِ الإعرابَ بالنُّطق اختَبَلْ(١)

في هذا البيت يدعو ابن الوردي إلى الاهتمام بعلم النحو، ومعرفة الإعراب؛ فالذي لا يهتم بهذا العلم يفسُد نطقُه، وتخفى عليه مقاصد الكلام ومراميه.

وهذا البيت متصل بما قبله؛ لأن معرفة النحو وسلامة النطق ركيزة أساسية في طلب العلم عموماً والفقه خصوصاً، وبه تُصان اللغة من الفساد، وتُدرك مقاصد الكتاب العزيز والسنة الشريفة.

ومن هنا كان اهتمام العرب بعلم النحو منذ أن دعت إليه الحاجة حينما اختلطت الأجناس، وبدأت الألسنة في الاضطراب.

وحثَّ السلف على الاهتمام بالنحو، وعدُّوه من أجلِّ العلوم، يقول الشاعر:

النحو يَبْسطُ من لسان الألْكَنِ

والمرءُ تُكرمه إذا لم يلحَنِ

(١) المنطق: النطق، والنحو: هو العلم الذي يُعرف به ضبط أواخر الكَلِم، ومعرفة صواب الكلام من خطئه.

اختبل: فسد كلامه.

وإذا طلبتَ مِنَ العلوم أجلَّهـــا
فـأجلُّهـا منهـا مـقـيمُ الألسُنِ

وكان الفصحاء يأنفون من اللحن «أي النطق الخاطئ»؛ قال مسلمة بن عبدالملك: «اللحن في الكلام أقبح من الجدري في الوجه».

وقال عبدالملك بن مروان: «اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس».

ومن طريف ما يُروى: أن أعرابياً دخل السوق، فسمعهم يلحنون، فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح!

وقيل أيضاً: إن أعرابياً سمع والياً يخطب، فلحن مرةً أو اثنتين، فقال: أشهد أنك ملكت بقدَرٍ.

وهذه الأخبار – على ما فيها من روح الفكاهة – تعكس حرص السلف على صون اللسان العربي من الفساد. وما دعوة ابن الوردي إلى العناية بالنحو إلا من قبيل هذا الحرص، وبخاصة أن ابن الوردي عاش – كما عرفنا – في عصرٍ اختلطت فيه اللغة العربية بغيرها من اللغات، وعجَّ الوطن الإسلامي بأجناس مختلفة؛ منهم على سبيل التمثيل لا الحصر من الأتراك والأرمن، وكان نتيجة ذلك أنْ شاعت في كتابات الأدباء وأشعار الشعراء كثير من الألفاظ الدخيلة، لدرجة أننا رأينا من الأدباء من يأسى للحال التي وصلت إليها اللغة، يقول البهاء زهير:

تكلِّمني بالأرمنيـة جـارتي
أيا جارتي ما الأرمنيةُ من طبعِي
ويا جارتي لم آت بيتَكِ رغبـةً
ولا أنتِ من يُرجَى لضُـرٍّ ولا نفعِ

دعاني إليك اللّيْلُ والأينُ والسُّرى
فصادفتُ أمراً ضاق عن حمله وُسعي
كلامُك فيه وحده لي كفايةٌ
كأن صخوراً منه تقذفُ في سمعي
للهِ ما لاقيتِ يا عربيتي
وماذا الذي عُوِّضتِ بالبانِ والجزْعِ

والأبيات تعكس - كما ترى - ألماً عميقاً لِمَا آل إليه أمر اللغة العربية من إعراض عنها إلى غيرها من اللغات.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبق أن ألمحنا إليه من الخطر الذي كان يتهدد العالم الإسلامي، متمثلاً في التتار والصليبيين - وكلا الفريقين كان من أهدافه طمس كل معالم الإسلام - أدركنا حرص ابن الوردي على العناية بالنحو، وسلامة اللسان، وصون اللغة، لأن الحفاظ على اللغة حفاظ على الإسلام، فمن دونها لا نفهم القرآن الكريم.

وفي عصرنا الحاضر لعلنا نواجه ما كان يواجه العالم الإسلامي في أيام ابن الوردي من محاولات لطمس اللغة، ويتخذ ذلك طرقاً عدة، ويتبدّى في ثياب مختلفة، ففي بداية هذا العصر كانت الدعوة إلى اتخاذ العامية لغة كتابة وإلى نبذ الفصحى، وقد تبنى هذه الدعوة بعض المستشرقين، وروّج لها بعض المستغربين[1].

---

(١) اقرأ في ذلك كتاب «تاريخ الدعوة إلى العامية» للدكتورة نفوسة زكريا، ط دار المعارف بالقاهرة، ففيه عرض لهذه الدعاوي وكشف لمراميها.

ومن عجبٍ أن هؤلاء المستشرقين، الذين تنادواْ بنبذ الفصحى أو بتشويهها، لا يقبل أيٌّ منهم أن تُمَسَّ لغته أو يُعبث بها، ومع ذلك - وهذا عجب العجب - أن فريقاً من أدباء العرب راح يروِّج لهم، ويدعو بدعوتهم، بل كان بعض هذا الفريق أشدَّ ضراوة على لغته من المستشرقين. فقد سمعنا بعض أدباء مدرسة المهجر يقولون: إن اللغة ليست إلا أداة توصيل، فإذا تمكَّن الأديب أن يوصل ما يريد إلى قارئه، فلا يهم - بعد ذلك - إن كان ما استخدمه من لغة سليماً أو غير سليم.

وهناك من نحا في دعوته منحى آخر، فقال: إن اللغة العربية غير قادرة على مواكبة التطور العلمي والقيام بعبء مصطلحاته، وهناك أخيراً من ينادي بإدارة الظهر إلى التراث العربي الإسلامي، والأخذ بما توصَّل إليه الغرب من نظريات جديدة وآراء مبتكرة.

وليس كل أولئك إلا أقنعة لدعوة واحدة؛ هدفها اللغة التي هي المدخل الذي لا مدخل غيره لفهم الدين وللحفاظ عليه، ورحم الله حافظ إبراهيم حين رد على هذه الدعاوي في قصيدته التي يتحدث فيها على لسان اللغة العربية، ونقتطف منها:

وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً
وما ضِقتُ عن آيٍ به وعظاتِ
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلةٍ
وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدُّرُّ كامنٌ
فهل سألوا الغواصَ عن صَدَفاتي

وفيها يقول:

أيُطْرِبُكُم مِنْ جانب الغرب ناعبٌ
ينادي بوأدي في ربيع حياتي

ولو تزجُرون الطَّيرَ يوماً علمتمُ
بما تحته من عثرة وشَتاتِ

أرى كلَّ يومٍ بالجرائد مزلَقاً
من القبر يُدنيني بغيرِ أناةِ

وأسمع للكُتَّابِ في مصرَ ضجَّةً
فأعلم أن الصائحين نُعاتي

أيهجُرني قومي، عفا الله عنهم
إلى لغة لم تتَّصل برُواةِ؟

سَرَتْ لوثةُ الإفرنج فيها كما سرى
لُعابُ الأفاعي في مَسِيلِ فُراتِ

فجاءت كثوب ضمَّ سبعين رُقعةً
مشكَّلَةَ الألوانِ مختلفاتِ

وما أشبه الليلة بالبارحة.

٢٣- وانظِمِ الشِّعرَ ولازِمْ مذهبي
فاطِّراحُ الرِّفْدِ في الدنيا أقَلْ

٢٤- فهو عنوانٌ على الفضل وما
أحسنَ الشعرَ إذا لم يُبْتَذَلْ

٢٥- ماتَ أهلُ الفضلِ لم يبقَ سوى
مُــقْــرِفٌ أو مَنْ على الأصلِ اتَّكَلْ

٢٦- أنا لا أخــتــارُ تقــبــيلَ يدٍ
قـطعُــهــا أجــملُ من تلك القُــبَلْ

٢٧- إن جزتْني عن مديحي صِرتُ في
رِقِّــهــا أو لا، فــيكفــيني الخَــجَلْ

٢٨- أعـذبُ الألفاظ قـولي لك خُـذْ
وأمَــــرُّ القــــولِ نُطقي بلَعَلْ(١)

يدعو ابن الوردي في هذه الأبيات إلى نظم الشعر، على أن يلتزم الناظم بما التزم به ابن الوردي من عدم اتخاذ الشعر وسيلةً للتكسُّب وطلب الرِّفد. وقليلٌ من الشعراء من يفعل ذلك وينزِّه شعرَه عنه.

ويمضي ابن الوردي، فيبين أن الشعر عنوان على فضل صاحبه ما سما به، وجعله معرضاً للإبداع والإمتاع، لا وسيلةً للتجارة والانتفاع.

ويعجب ابن الوردي من أولئك الشعراء الذين يمتهنون الشعر بالمديح والتكسُّب. ويرى أنه لم يعد هناك من يستحق أن يُمدح؛ فقد ذهب أهل الفضل، ولم يبق سوى فريقين كلاهما ساقط؛ ففريق به هُجنة لا يفهم الشعر ولا يذوقه، وفريق ليس له من عمله ما يرفعه، وإنما هو يعتمد على أصله ويتَّكل عليه.

---

(١) اطِّراح: ترك، أفل: غاب، الرِّفد: العطاء، يبتذل: يمتهن، المقرف: من به هُجنة؛ أي: أمه عربية وأبوه من جنس آخر، الرِّق: الملك، ومنه قيل للمملوك: رقيق.

ويأنف ابن الوردي أن يتقدم إلى واحد من هؤلاء مادحاً، مقبِّلاً يداً هي أوْلى بالقطع لا التقبيل؛ لأنها يد عاطلة لم تقدم خيراً ولم تعمل له. والشاعر إزاء هؤلاء بين أمرين كلاهما مرٌّ؛ فإن أعطوْه أذلوه، وإن لم يعطوه أصابه ذلٌّ آخر، هو ذل الخجل.

ويختتم ابن الوردي هذا المقطع ببيت أشبه بالحكمة، فيقول: إن أعذب الألفاظ قول «خذ»، وأمَرُّ الألفاظ قول «لعل»؛ أي الذي يعطي خير من الذي يلتمس العطاء ويـمَنِّي نفسه، ويقعد بين اليأس والرجاء، وحسبه ذاك من عناء.

وابن الوردي ناظر في هذا البيت إلى قول الرسول ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[١]، وقوله صلوات الله عليه: «لأن يأخذ أحدكم حبلَه فيحتطب، خير له من أن يسألَ الناس أعطَوْه أو منعوه»[٢].

وفي هذه الأبيات يلمح ابن الوردي من طرفٍ خَفِيٍّ إلى أحوال عصره، حيث أصبح على رأس المجتمع طبقة غير عربية هم «المماليك» لا يفهمون الشعر ولا يتذوقونه، وكثير منهم - بعد ذلك - لا يستحق المديح، حيث لا ترفعه همة ولا يزكيه عمل.

وقد كثُرت شكاوى الشعراء في عصر ابن الوردي من كساد سوق الشعر لدى هذه الطبقة التي لا تفهم الشعر ولا تتذوقه، ولا/تثيب عليه، ولا تقدِّر أصحابه، بل كان همها الدائم الأخذ لا العطاء، يقول سراج الدين الورَّاق - وهو من معاصري ابن الوردي - يسخر من أحد أفراد هذه الطبقة:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

قلت لبــــوَّابٍ على بابه

مشــوَّهِ الخِلْقــةِ والشكلِ

خذ لي عليه الإذنَ قال: استرِحْ

ذا بابُ خُــذْ منِّي ولا خُــذ لِي

أما مجير الدين اللمطي – وهو من معاصري ابن الوردي أيضاً – فيرميهم بأسوأ النعوت، ويصنفهم بأنهم كالحمير التي تريد الشعير لا الشعر، وأنهم أحرى بأن يخاطَبوا باللغة التي يخاطَب بها الحمير، وهي لغة الصفير، يقول:

مِنْ بني الدهر عصبةٌ كالحمير

فدع الشِّعرَ والقَهُم بالشعيرِ

لا تخاطِبْهم جهاراً إذا ما

رُمْتَ أن يفهموا بغيرِ الصفير

وانتهى الأمر بكثير من الأدباء إلى قطع الرجاء في أمثال أولئك، والتعفُّف عما في يدهم، والتوجه إلى الله؛ فهو وحده الآسي والمداوي، وهو وحده المعطي والمنعم. أما الخلْق جميعاً، فليسوا أهلاً لسوى اليأس.

يقول ابن دقيق العيد:

قــد جــرحــتنا يدُ أيامنا

وليس غــيــر الله من آسي

فــلا ترج الخلق في حــاجــة

ليــســوا بأهل لســوى اليــاس

ولا تزد شكوى إليهم فما
معنى لشكواك إلى قاس

والقارئ لشعر ابن الوردي يرى أن شكواه من أهل زمنه، ومن انعدام الفضل بينهم تتردد كثيراً في شعره؛ فمن ذلك قوله:

ماتَ أهلُ العلم ما لي
لا أرى إلاَّ جهولا
أيها الطالبُ صدقاً
قد طلبت المستحيلا
لم تجد إلاَّ قؤولاً
للتُّقى ليس فعولا
إن أهل العصر عندي
هكذا إلا قليلا

ومن ذلك قوله:

أشكو إلى الله الزمان فدَأْبُه
عِزٌّ العبيد وذِلَّةُ الأحرارِ

وقد سبق أن ألمحْنا إلى شيء من هذا.

على أن ابن الوردي ليس أولَ من صان شعره عن الابتذال بالمديح، فكثير من الشعراء سلك هذا المسلك؛ يقول بعض الشعراء:

وإني امرؤٌ لا أسألُ الناس مالَهم
بشعري ولا تَعْيا عليَّ المكاسبُ

ويقول آخر:

من يسألِ النَّاسَ يحرموه
وسائلُ الله لا يخيبُ

ويقول ثالث:

أيها المادح العبادَ لتُعْطَى
إن للهِ ما بأيدي العبادِ
لا تقلْ في الكريم ما ليس فيه
وتسمِّي البخيلَ باسمِ الجوادِ

ولعل ابن الوردي كان يقتدي في هذا السلوك الزاهد بأبي العلاء المعري، ولا عجب في ذلك، فكلا الشاعرين ينتمي إلى معرة النعمان.

وابن الوردي إذا كان ينأى بشعره عن المديح، فهو لا ينأى بنفسه عن الشعر؛ فهو يراه عنواناً على فضل صاحبه كما سبق القول، وهذا حق؛ فالشعر لم يزل ديوانَ العرب وسجلَّ مفاخرهم، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «نِعْمَ ما تعلمتْه العرب الأبيات يقدمها الرجل أمام حاجته»، ويقول: «الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه»[1].

وقال علي رضي الله عنه: «الشعر ميزان القوم»[2].

وقال بعضهم: «تعلموا الشعر؛ فإن فيه محاسنَ تُبتغى ومساوئ تُتَّقى، ويحل عقدة اللسان، ويشجع الجبان»[3].

---

(١) الممتع ص٢٢، ٢٣.

(٢) الممتع ص٢٣.

(٣) الممتع ص٢٧.

وليس صحيحاً أن الإسلام زَهَّد في الشعر، أو حطَّ من قدر الشعراء. وقوله سبحانه: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦] موجَّه إلى فريق غير ملتزم من الشعراء؛ لأن بعد ذلك يأتي قوله سبحانه: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ حين تأذَّى من شعراء قريش أنه قال: «ألا رجلٌ يردُّ عنا؟ قالوا: يا رسول الله، حسان بن ثابت. قال: اهجُهم - يعني قريشاً - اهجهم ومعك جبريل روح القدس»[1].

٢٩- مُلْكُ كسرى عنه تغني كِسْرَةٌ
وعن البحر اجتزاءٌ بالوَشَلْ

٣٠- اعتبر (نحن قسمنا بينهم)
تلْقَه حقّاً وبالحقِّ نزلْ

٣١- ليس ما يحوي الفتى من عزمِه
لا ولا ما فات يوماً بالكسلْ

٣٢- واترُكِ الدنيا فمِن عادتِها
تخفِضُ العالي وتُعلي من سَفَلْ

٣٣- عِيشةُ الزاهدِ في تحصيلها
عيشةُ الجاهدِ بل هذا أذلْ

---

(١) الممتع ص٣١.

٣٤- كم جهولٍ وهو مُثْرٍ مكثرٌ
وعليمٍ مات منها بالعِلَلْ

٣٥- كم شجاعٍ لم ينَلْ منها المُنى
إنما الحِيلةُ في ترك الحيل[١]

يستمر ابن الوردي في هذه الأبيات في تزهيده في الدنيا، وفيما تفتِن به عشَّاقها من المال والجاه؛ فيقول: إن ملك كسرى - على ما كان عليه من سَعةٍ - تغني عنه كسرة من خبز، كما أن البحر الزاخر تغني عنه شربة من الماء تنقع غليل الظمآن.

وكأن الشاعر يريد أن يقول: لقد امتلك كسرى ما امتلك، فهل كان له من هذا الملك الواسع العريض إلا لُقيمات أكلَها يسدُّ بها رمَقَه، ويحفظ بها حياته. إذن، ففيم كَدُّ الإنسان لجمع الأموال، وشراء الضياع والعقار؟ هل سيأخذ من ذلك كله شيئاً؟ وهل ينفعه من كل ذلك شيء في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون؟

العاقل - إذن - من يرضى بحظه في الحياة، ومن يقنع برزقه، ومن يتدبر معنى قوله سبحانه: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾ [الزخرف: ٣٢].

إن الإنسان إذا تدبر هذا القول الكريم، أدرك أن الرزق بيد الله، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه سبحانه قد قسم الرزق بين عباده، فجعل هذا

---

(١) كسرى: ملك الفرس، كسرة: قطعة من الخبز.
اجتزاء: اكتفاء، الوشل: الماء القليل.
الجاهد الذي يجهد نفسه في جمع حطام الدنيا.

غنياً، وهذا فقيراً، وليس في قسمته سبحانه غُبن، فالغنى ابتلاءٌ للإنسان، كما أن الفقر ابتلاء.

ويمضي ابن الوردي، فيؤكد لنا أن الفقر والغنى بيد الله سبحانه، فلا يغترَّ غنيٌّ بغناه، ويقول كما قال قارون مغتراً: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي**﴾ [القصص: ٧٨]، ولا يسخط فقير على فقره، ويتهم نفسه بالعجز والكسل، فقد تُقبِل الدنيا على الإنسان ولا عمل، وقد تُدبر عنه وقد كدَّ وشقِيَ. ثم إن الدنيا - بعد ذلك - لا تستقر على حال؛ فهي دائرة بالناس، تلهو بهم؛ تُذِلُّ العزيز، وتُعز الذليل، وترفع سافلاً، وتخفض عالياً، ويستوي في تحصيلها الزاهد والقانع، والجاهد المنهمك؛ لأن كليهما لن ينال إلا ما كُتب له من الرزق.

وإذا كان هذا أمر الدنيا، فالزاهد فيها أكرمُ نفساً، وأهدأ بالاً؛ لأنه أدار للدنيا ظهره، وصان من المذلَّة وجهه ويده. أما الجاهد، المقبل عليها، المغترُّ بها، فإنه يُذل نفسه بالحرص والسؤال، ولن يأخذ في النهاية إلا ما كُتب له.

ويبين ابن الوردي أن الرزق قسمة من الله، لا نستطيع بمعاييرنا الدنيوية أن ندرك لها سراً أو علةً، إنما تلك حكمة عُليا، اختص بعلمها مقسِّم الأرزاق سبحانه، فلا دخل في الرزق للعلم والجهل، ولا للشجاعة أو الجبن، فكم جهول غدا ثرياً، وكم عالم مات بعِلَله لم يجْنِ شيئاً، وكم شجاع جرَّت عليه شجاعته الهلاك، وكم من جبان نال كلَّ ما تمنى، فلا قيمةَ لحيلة الإنسان، وعلى الإنسان أن يتَّئد. وإذ كان هناك من حيلة، فينبغي أن تكون هذه الحيلة هي ترك الحيل والإجمال في الطلب. وما أجمل قول محمود الوراق في هذا المعنى:

قَدَرُ اللهِ كائنٌ
حين يقضي ورُودُهُ
قد مضى فيك علمه
وانتهى ما يريدُه
وأخو الحزْم حزمُه
ليس مما يزيدُه
فأرِدْ ما يكون إن
لم يكن ما تريدهُ[1]

وقد يظن قارئُ هذه الأبيات أن ابن الوردي يدعو إلى القعود والتواكل وترك السعي، وهذا ليس بصحيح، إنما هو يريد ألاَّ نتكالب على الدنيا، وألا يجرَّنا الحرص عليها إلى جمع حُطامها ولو بالمعصية، وألا نسخط على ما قُسم لنا، ونحقد على من وسَّع الله عليه وبسط له في الرزق. وهذا طبعاً لا يعطِّل السعي في طلب الرزق والمعاش، ولكن هناك فرقاً بين سعي المتكالب اللاهث، وسعي المؤمن القانع الواثق بربه، إن سعي المؤمن الواثق سعيٌ متعقِّل متَّئد، لا يعطي الدنيا أكثرَ مما تستحق، ولا يُقبل على عاجلها بكل جوارحه وينسى آجله، ولا يقنَط إذا قُتِّر عليه، ولا يفرح إذا كان في سَعة؛ لأنه يعلم أن المال لله أولاً وأخِيراً، وأن الإنسان مستخلَف فيه إذا كان له، وإذا لم يكن له، فإن الله يستخلف من يشاء.

وابن الوردي في هذه النظرة يصدر عن منطلق إسلامي واضح كلَّ

(١) أدب الدنيا والدين ص٣٢٧.

الوضوح، وقد رأيناه أشار في أحد أبياته إلى ما ورد في سورة الزخرف من قوله سبحانه: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم** ﴾.

وفي القرآن الكريم آياتٌ كثيرة تبين أن أمر الرزق يختص بالخالق سبحانه، يقول سبحانه: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [آل عمران: ٢٦].

كذلك، فابن الوردي يقبس من الهَدْيِ النبوي في الحثِّ على الإجمال في الطلب؛ فمن خطبته ﷺ في يوم أُحد: «وإنه قد نفث الروح الأمين في رُوعي أنه لن تموتَ نفسٌ حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله ربَّكم، وأجملوا في طلب الرزق، ولا يحملَنَّكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم»(١).

وابن الوردي يلتقي في معاني هذه الأبيات بكثير من شعراء العربية؛ فهو مثلاً يلتقي بقول القائل:

يا طالبَ الدنيا ليجمعَها
جَمَحَتْ بك الآمالُ فاقتصدِ

والقصدُ أحسنُ ما عملت له
فاسلك سبيلَ الخير واجتهدِ

والحرصُ يُفقِرُ أهلَه كمداً
والرزقُ أقصى غايةِ الأمدِ

---

(١) مصنف عبدالرزاق، باب القدر، كتاب الجامع.

ويلتقي أيضاً على نحو ما بقول الزاهد المعروف بشر الحافي:

قالوا قنعتَ بذا قلت القُنوع غِنًى
ليس الغِنى كثرة الأموال والورِقِ
رضيتُ بالله في عُسري وفي يسُري
فلستُ أسلُكُ إلا أوضحَ الطُّرق

ويتقارب تقارباً شديداً من قول معاصره برهان الدين القيراطي:

خليلي ليس الرزق يأتي بحيلة
وكل رشيد لم يزل متوكلا
وسَعْدُ الفتى بالجِدِّ لا الجَدِّ فاطَّرح
فَخارَك بالآباء في وسَط الملا
وكم عالم حَطَّ الحطيط بعلمه
وكم جاهل للَّوح بالحظِّ قد علا
فها أنا للأيام غيرُ محارب
أصاحبَها مستبشراً متهللا
فإن كان حظِّي رابحاً كنتُ رابحاً
وإن كان حظِّي أعزلاً كنت أعزلا

ونستطرد إلى ذكر بعض الأشعار التي تدور حول ما دار حوله ابن الوردي؛ يقول بعض العُبَّاد:

لقد غرَّتِ الدنيا رجالاً فأصبحوا
بمنزلةٍ ما بعدها مُتَحَوَّلُ

فساخِطُ أمرٍ لا يُبَدَّلُ غيرَه
وراضٍ بأمرٍ غيرَه سيُبَدَّلُ
وبالغُ أمرٍ كان يأمُل دونَه
ومختلجٌ مِنْ دون ما كان يأمُلُ

ويقول آخر:

تمتَّعْ من الأيام إن كنت حازماً
فإنك منها بين ناهٍ وآمرِ
إذا أبقت الدنيا على المرءِ دينَه
فما فاته منها فليس بضائرِ
فلن تَعدِلَ الدنيا جناحَ بعوضة
ولا وزنَ ذرٍّ من جناح لطائرِ
فما رضِي الدنيا ثواباً لمؤمن
ولا رضِي الدنيا جزاءً لكافرِ

ويقول آخر:

خَلِّ دنياك إنها
يعقُبُ الخيرَ شرُّها
هي أمٌّ تعقُّ مِنْ
نسلها من يبَرُّها
كل نفس فإنها
تبتغي ما يسرُّها
فإذا استحلَّت الجَنى
أعقبَ الحلوَ مرُّها

ويقول أبو العتاهية:

أرى الدنيا لمن هي في يديه
عذاباً كلَّما كثرت لديهِ

تُهين المكرِمين لها بصغر
وتُكرمُ كلَّ من هانت عليهِ

إذا استغنيتَ عن شيء فدَعْهَ
وخذ ما أنت محتاجٌ إليهِ

ويقول آخر:

فاعمل على مهلٍ فإنك ميّتٌ
واكدح لنفسك أيها الإنسان

فكأنْ ما قد كان لم يَكُ إذ مضى
وكأن ما هو كائن قد كان

ويقول آخر:

العيش ساعاتٌ تمرّ
وخطوبُ أيامٍ تكرْ

اقنَعْ بعيشِك ترضَهُ
واترك هواك تعيش حرْ

فلرُبَّ حتفٍ ساقه
ذهبٌ وياقوتٌ ودرْ

ويقول آخر:

أرْفِهْ ببال فتى أمسى على ثقة
أن الذي قسم الأرزاقَ يرزُقُهُ

إن القناعة مَنْ يحلُلْ بساحتها
لم يلْقَ في دهره شيئاً يؤرقهُ

ويقول آخر:

أراك يزيدك الإثراءُ حِرصاً
على الدنيا كأنك لا تموتُ
فهل لك غايةٌ إن صرتَ يوماً
إليها قلتَ حسبي قد رضيتُ

٣٦- أيٌّ كفٌّ لم تنلْ منها المُنى
فرماها الله منها بالشللْ

يقول ابن الوردي: إن الذي يمتلك المال ويقبض يده عن بذله والتصدق به على ذوي الحاجة، وعلى من قد علّقوا عليه المنى؛ فإن يده تستحق القطع، ولذلك نراه يدعو اللهَ أن يرميها بالشلل: «فرماها الله منها بالشلل».

وقد يظن عند قراءته لهذا البيت أنه يتعارض مع ما سبق أن دعا إليه من الزهادة والقناعة؛ إذ كيف يتفق الزهد مع تعليق الرجاء على ما في أيدي الناس بذلوا أو منعوا؟

ولكن ما نظن ابنَ الوردي قصد إلى هذا، ولكنا نعتقد أنه يقصد هنا إلى التنبيه على حق الفقير في مالِ الغني، وهذا متّصل بفكره في الأبيات السابقة، فإذا كان الرزق مقسوماً – كما سبق أن أشار – فلا ذنب للفقير في فقره، ولا حيلة للغني في غناه، وإنما على الغني ألا يقبض يدَه عن مواساة الناس؛ لأن المال أساساً مالُ الله، والإنسان مستخلَف فيه. وإذا كان الأمر

كذلك، فعلى الغنيٍّ الذي منحه الله المالَ أن يعين ذوي الحاجة، وإلا فإنه لم يقم بحق الخلافة في هذا المال، والذي لا يقوم بحق الخلافة فيما استُخلف فيه يستحق أن ينزع عنه، وتستحق يده أن تُرمى بالشلل، كما ذكر ابن الوردي.

وإذا كان هذا هو الفهمَ الصحيح الذي يمليه السياق، فإن ابن الوردي لا يناقض نفسه، ولكنه يصدر عن تصور إسلامي متساو؛ فالله سبحانه وتعالى جعل نصيب الفقير في مال الغني «حقاً»، ولم يجعله «مِنَّةً» يمنُّ بها الغنيُّ متفضلاً؛ يقول سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]. ويقول سبحانه: ﴿**كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٤١]، وجعل سبحانه الصدقة تطهيراً للأغنياء وتزكية لهم؛ يقول جل من قائل: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [التوبة: ١٠٣]، ويقول سبحانه: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [التوبة: ١٠٤]، وفي قوله سبحانه: ﴿**وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ**﴾ لَفْتٌ كريم إلى أن ما نبذله من أموالنا للفقراء إنما هو بذل الله يثيب عليه ويجازي عنه؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقعَ في يد السائل».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما تصدق أحد بصدقة من طَيِّبٍ - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه».

وإذا كان هذا البيت قد جرَّنا إلى الحديث عن حق الفقير في مال الغنيٍّ، فإنه يجرنا أيضاً إلى الحديث عن الكرم الذي هو خُلُق العربي؛ فالعربي كان يأنف أن يخيِّب رجاء إنسان، أو أن يرد سائلاً مخيَّب المنى، ويرى أن المال فانٍ ذاهب، وأن ما يبقى من الإنسان هو الذِّكر الطيب؛ يقول حاتم الطائي مخاطباً زوجَه التي تلومُه على الكرم:

أماويَّ إن المال غادٍ ورائحٌ
ويبقى من المرءِ الأحاديثُ والذكرُ
أماويَّ ما يغني الثَّراءُ عن الفتى
إذا حشرجت نفسٌ وضاقَ بها الصدرُ

وقد عُرف من كرماء العرب من كان يتهلَّل بِشْراً إذا سأله سائل، كأن السائل يعطيه لا يأخذ منه، يقول زهير بن أبي سلمى في مدح هَرِمِ ابن سِنان:

تراه إذا جئتَه متهلِّلاً
كأنك تعطيه الذي أنت سائلُهْ

وقد أخذ هذا المعنى بعد ذلك أبو تمام، وزاد عليه حين قال في مدح الخليفة المعتصم:

تعوَّدَ بسطَ الكف حتى لَوَ انَّه
ثناها لقَبْضٍ لم تجِبْه أناملُهْ
ولو لم يكن في كفِّه غيرُ روحه
لجاد بها فليَتَّقِ الله سائلُهْ

وكان أسوأ ما يُوصَم به العربي هو البخل، لذلك كان من أقذعِ القول وأمَرِّه على بني تغلب قولُ جرير في هجاء الأخطل:

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرى
حكَّ اسْتَه وتمثَّل الأمثالا

ويعني أن هذا المهجوَّ لا يقدم القِرى، وهو طعام الضيف، وإنما هو يشغل ضيفه بالحديث والأمثال.

وكان من أقذع القول أيضاً قولُ بشار في هجاء عبدالله بن العباس:

ظِلُّ اليسارِ على العباس ممدودُ
وقلبه أبداً في البخل معقودُ
إن الكريم ليُخفي عنك عُسرتَه
حتى تراه غنياً وهو مجهودُ

ومن مقذع القول أيضاً قولُ المتنبي في هجاء كافور:

جوعانُ يأكلُ من زادي ويُمسكني
حتى يقال: كريمُ القدر مقصودُ

وحديث الكرم والبخل حديث يطول.

٣٧- لا تقل: أصلي وفصلي أبداً
إنَّما أصلُ الفتى ما قد حَصَلْ

٣٨- قد يسودُ المرءُ من غيرِ أبٍ
وبحُسنِ السَّبك قد يُنفى الزَّغَلْ

٣٩- وكذا الوردُ مِنَ الشَّوك وما
ينبُتُ النرجسُ إلا من بصلْ

٤٠- مَعَ أنِّي أحــمَــدُ اللهَ على
نسَـــبِي إذ بأبـي بكـر اتَّصلْ
٤١- قيمةُ الإنسانِ ما يحسنُه
أكــثــرَ الإنســانُ منه أو أقلْ[١]

يدعو ابن الوردي في هذه الأبيات إلى ألا يفخر الإنسان بآبائه وأجداده، وإنما عليه أن يفخر بعمله، فكم من امرئ ساد بفعاله وأخلاقه وهو خامل النسب، وكم من إنسان خاض الحياة بنفسه دون اعتماد على نسبه، فصهرَتْه التجارب، وأنضجته الأحداث، فبرز جوهره النبيل كما يُبرز السبكُ جوهرَ المعدن نقياً خالصاً من الأوشاب، وكما تبرز الوردة ناضرةً بين الأشواك، وكما يتفتَّح زهر النرجس وهو في الحقيقة ليس إلا ضرباً من الأبصال، فالفرع ليس بالضرورة أن يكون مماثلاً للأصل.

على أن الشاعر يعود فيحمد الله على أنَّ نسبه متصل بأبي بكر الصديق، وفي هذا ما قد يتناقض مع ما بدأ به من النهي عن الفخر بالنسب، ولكن هذا – في نظرنا – تناقض ظاهري، فالشاعر في ظننا لا يريد أن يحطَّ من شرف النسب، ولكنه يبين أن شرف النسب لا ينفع وحده ما لم يشفعْه الإنسان بالعمل الصالح، وهو في الوقت نفسه يدفع الظنون، من أنه يحط من الأنساب؛ لأنه لا نسب له، وإنما يقول: هذا أنا وإن كنت ذا نسب، فإن الأنساب وحدها لا تُجدي شيئاً، ولا ينفع المرء إلا عملهُ. وهو منطق إسلامي أيضاً؛ حيث يقول النبي ﷺ لفاطمة: «يا فاطمة، اعملي

(١) الزَّغَل: ما يخالط من الأوشاب، السبك: الإذابة.

لنفسك، فإني لا أغني عنك من الله شيئاً»[1].

وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب في وصيته لسعد بن أبي وقاص: «يا سعد، لا يغرنَّك أنك خالُ رسول الله...».

وفي ظننا أيضاً أن ابن الوردي لا يريد من وراء إبراز نسبته إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فخراً دنيوياً على أنداده وخصومه، ولكنه يبتغي أن ينفعه الله بهذه الصلة في آخرته، وأن يتَّبعه به رضي الله عنه كما جاء في قوله سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ**﴾ [الطور: ٢١]، وهذا ما يفصح عنه ابن الوردي بصورة أوضح في قوله من قصيدة أخرى:

قولوا لمن يفخر بالعظم
الفخرُ بالعلم وبالحِلْمِ
إذا علا قدري عن والدي
بزعمكم دلَّ على عزمي
يا رحمةَ الرحمن أمي أبي
فسرني كون أبي أمي[2]
هذا وبالصديق لي نسبةٌ
ووصلة تُعرف كالنجمِ

---

(١) صحيح مسلم، وسنن النسائي، ومسند أحمد.

(٢) يتلاعب الشاعر هنا باللفظ؛ فقوله: يا رحمة الرحمن أُمِّي أبي؛ يعني بها: يا رحمة الرحمن اقصدي أبي؛ فأُمِّي هنا من الفعل «أمَّ» أي: قصد، أما قوله: فسرَّني كون أبي أمي؛ أي: إن أبي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

أعـددتهـا للحـشـر ذُخـراً ولا

أبغي بهـا فـخـراً على خـصـمي

وإذ قد تبين لنا ذلك، فابن الوردي سائر على السَّنن الإسلامي لم يحِدْ عنه، فـفي الإسـلام لا يسـمـو المرء إلا بعـمله، ولا يتـفـاضل الناس إلا بالتـقـوى. يقـول سبـحـانه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقـول ﷺ: « كلكم لآدم وآدم من تراب. ألا لينتـهينَّ قـوم يفـخـرون بآبائهـم، أو ليكونُنَّ أهونَ عند الله من الجُعلان ». رواه الترمذي.

ويقـول ﷺ في خطبته يوم فتح مكة: « يا معـشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء، الناس من آدم، وآدم خُلق من تراب ». رواه الترمذي.

والناس بعد ذلك متساوون أمام حدود الله، لا توضع عن شريف لشرفه، ولا يؤخذ بها ضعيف لضعفه. ونذكر هنا غضبتَه ﷺ حينما وسَّطت قريشٌ أسامةَ بن زيد في المرأة المخزومية التي سرقت؛ حيث صعد ﷺ المنبر غاضباً، وقال: « إنما أهلك الذين كانوا من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والله، لو أن فاطمة بنتَ محمدٍ سرقت لقطعتُ يدها ». رواه البخاري ومسلم.

هذا هو المنطلق الذي يصدر عنه ابن الوردي في أبياته، ولذلك كان طبيعياً أن يعود مرة ثانية في ختام هذا المقطع، فيؤكد أن قيمة الإنسان

فيما يُحسنه من عمل، وذلك في قوله:

قيمةُ الإنسان ما يُحسنه
أكثرَ الإنسانُ منه أو أقلْ

فالعمل وحده هو الذي يسمو بصاحبه لا نسبه ومجده، ويقال: إن هذا البيت نَظْمٌ لحكمة مأثورة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فقد روي عنه قوله: «لكل شيء قيمة، وقيمة المرء ما يحسنه».

وسواء أصحَّ ذلك القول لعلي رضي الله عنه أو لم يصح، فالعمل قيمة إسلامية نبيلة، وقد اقترن العملُ بالإيمان في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

ويقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

ويقول جل من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨].

كذلك فقد دعا الرسول ﷺ إلى العمل، وأنكر التواكل والاعتماد على الغير؛ فمما رُوي عنه ﷺ قوله: «لأن يأخذ أحدُكم حبله فيحتطب، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوْه أو منعوه»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[٢]. واليد السفلى هنا هي تلك الممدودة بالسؤال، والتي آثَرَ صاحبُها القعود على العمل.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وقد رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إني أرى الرجل، فيعجبني، فإذا علمت أنه لا يعمل سقط من نظري».

على أننا نريد أن نلفت في هذه الأبيات إلى صورة طريفة هي قول ابن الوردي:

٤٢- وكذا الوردُ مِنَ الشوك وما
ينبتُ النرجسُ إلا مِنْ بصلْ

ويبدو أنه كان مُعجباً بهذه الصورة، ولذلك نراه لا يفتأ يكرِّرها في سائر شعره؛ يقول مثلاً:

أبَنِي زماني ما أنا
منكم وقولُ الحقِّ يثبتْ
وإذا نشأتُ خلالَكم
فالوردُ بين الشوك ينبُتْ

ونعتقد أنه تأثَّر في هذه الصورة بقول المتنبي:

فإن تَفُقِ الأنَامَ وأنت منهم
فإن المسكَ بعضُ دمِ الغزال

ويقول أيضاً:

وما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكن معدِنُ الذهبِ الرَّغامُ[1]

(١) الرَّغام: تراب لين، أو رمل مختلط بتراب، يقصد: أن الذهب قبل أن يكون ذهباً خالصاً، فهو مَشُوبٌ بالتراب، تراه كأنه تراب لاختلاطه بالتربة التي عثر عليه فيها. والله أعلم.

ويقول الشاعر:

نفسٌ لآبائها من فضلها شرَفٌ

مثلُ الثمار لها فضلٌ على الشجرِ

وأجمل من ذلك كلِّه قولُ ابن الرومي:

كم مِنْ أبٍ قد علا بابنٍ ذُرا شرَفٍ

كما علا برسول اللهِ عدنانُ

ونعود مرة أخرى للمتنبي، فنذكر أبياتَه الجميلة التي يشير فيها إلى أن طِيب الأصل لا يتبعه بالضرورة طِيبُ الفرع، وأن الإنسان ينبغي ألا يقنع بانتمائه إلى أبٍ هُمام، بل عليه أن يسموَ بنفسه إلى العُلا:

أرى الأجدادَ تغلِبُها كثيراً

على الأولاد أخلاقُ اللئامِ

ولستُ بقانعٍ مِنْ كلِّ فضلٍ

بأن أُعزى إلى جَدٍّ هُمامِ

عجبتُ لمن له قَدٌّ وحَدٌّ

وينبو نبوةَ القَضِم الكَهَامِ[1]

ولم أرَ في عُيوب الناس عيباً

كنقص القادرين على التَّمامِ

٤٣- اكتُمِ الأمرين فقراً وغِنًى

واكسَبِ الفَلْسَ وحاسِبْ مَنْ بَطَلْ

(١) القضْم: هو السيف المنثلم، والكهام: السيف الذي لا يقطع.

٤٤- وادَّرِعْ جِدّاً وكَدّاً واجتَنِبْ
صُحبةَ الحمقى وأربابَ الخلل[1]

يقول ابن الوردي: إن على الإنسان أن يكتم ما يصيبه من الفقر أو الغنى؛ لأنه لا يخلو في الحالين من شامت به أو حاسد له. ثم إن في كتمان الفقر لوناً من التعفُّف وصونِ النفس، وفي كتمان الغنى لوناً من التواضع وعدم التكبُّر.

ويمضي الشاعر، فيدعو إلى السعي؛ فالذي يربح من عمله - ولو فلساً - أفضل من الذي لا يعمل. وفي هذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه كما رواه عنه سعيد بن منصور في «سننه»: «إني لأكره أن أُرى فارغاً، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة».

وفي رواية عند أحمد وابن أبي شيبة وابن المبارك والبيهقي: «إني لأمقت الرجل أراه فارغاً، ليس في شيء من عمل دنيا ولا آخرة».

وفي تفسير سورة الانشراح عند الزمخشري عن عمر بلفظ: «إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللا، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة».

وفي معناه اشتهر على الألسنة: «إن الله يكره العبد البَطَّال». وهو وإن كان ضعيفاً، إلا أن السخاوي أورد له طرقاً وألفاظاً، وقال: بانضمامها تتقوى، فيصير الحديث حسناً.

---

(١) الفلس: أقل الدراهم قيمةً. من بطل: من قعد.
ادَّرِع: البس الدرع. والدرع: آلة من آلات الحرب، وادَّرَع جداً وكداً؛ أي: اجعل الكد والجد منك بمثابة الدرع.

ويأتي البيت الثاني فيتمم المعنى، حيث يقول الشاعر: إن على الإنسان أن يدَّرِعَ الكدَّ والجد، وهي صورة دقيقة، فكما أن الدرع كانت تحمي صدر المحارب وجسدَه في ساحة القتال، فكذلك العمل يصون وجه صاحبه ويقيه ذُلَّ السؤال كما يصون عِرْضه ودينه، فالحاجة قد تدفع الإنسان إلى التفريط في العرض أو الدين.

ويختم الشاعر قوله في هذين البيتين بالدعوة إلى تجنُّب صحبة الحمقى، وهم ناقصو العقول، وصحبة أرباب الخلل، وهم أصحاب الخُلُق الفاسد، فصحبة مثل هؤلاء تجلب على الإنسان الضرر، فالأحمق قد يؤذي صاحبه من حيث أراد النفع، والفاسد يُفسد على المرء حياته ودينه.

ونود أن نقف عند بعض القيَم المستخلصَة من هذين البيتين:

وأولاها: كتمان الفقر وما فيه من صون للنفس.

وثانيها: كتمان الغنى وما فيه من مجانبة للإعجاب.

وثالثها: تجنُّب صُحبة الحمقى والفاسدين.

أما كتمان الفقر، فهو خُلُق مستحبٌّ، فالكتمان هنا نوع من الصبر على البلاء، ورضا بما قسم الله. وكلا هذين من خُلُق المؤمن. ثم إن الفقير الذي يشكو إلى الناس فقره لا يجني من شكواه إلا الازدراءَ به والاستخفاف، فضلاً عمَّا يحسُّه سامعوه من ضجر ونفور، ولذلك نراه سبحانه يمتدح الفقراء المتعففين، فيقول عز منْ قائل: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وأما كتمان الغنى، ففضلاً عمّا فيه من اتقاء الحُسَّاد، فإنه مجانبةٌ للكِبْر والإعجاب بالنفس، والكبر يُكسب المقت، ويُوغر صدور الإخوان، ولذلك قال النبي ﷺ لعمه العباس: «أنهاك عن الشرك بالله والكِبْر؛ فإن الله يحتجب منهما».

وما أثقل على النفس من غنيٍّ مُدِلٍّ بغناه، متعالٍ بما ملكت يداه، يظن أنه قادر على الناس بما في يده من الدينار والدرهم. وفي قصة قارون لنا عبرة؛ حيث اغتر بغناه، وظن أنه قادر على الدنيا، وأنه أُوتيَ الغِنى على علم عنده، فكان أنْ خسَفَ الله به وبداره الأرض.

وأولى بالإنسان إذا أُوتِيَ الغِنى أن يعتقد أن ذلك ليس لفضل عنده، وإذا اعتقد ذلك تواضع للناس، وصغُرت عنده نفسُه.

حكي أن مطرِّف بن عبدالله نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حُلَّةٌ يسحبها ويمشي الخيلاء، فقال: يا أبا عبدالله، ما هذه المشية التي يُبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أوَّلك نُطفة مذِرة، وآخرك جِيفَة قذِرة، وحشْوُك ما بين ذلك بولٌ وعَذِرَة[1].

وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

عجبت من مُعْجَبٍ بصورته
وكان بالأمس نطفةً مَذِرَهْ

وفي غدٍ بعد حُسْنِ صورته
يصير في اللحدِ جيفةً قذِرهْ

(١) مذرة: فاسدة.

وهو على تيهِهِ ونخوته

ما بين ثوبيه يحملُ العذِرهْ

هذا ما نظن أن ابن الوردي قصد إليه من كتمان الغِنى. وقد يظنُّ ظانٌّ أن كتمان الغنى يعني كنز المال، والتظاهر بالفقر، والضَّنّ بحقوق المحتاجين فيه، وهذا ظنٌّ بعيد، ينفيه سياق القول، فابن الوردي - كما ذكرنا غير مرة - ينطلق في كل ما يقول من منطلق إسلامي، وما نظن مَنْ كان هذا شأنُه يدعو إلى كَنْز المال وحجْبه واحتجاره، وهو الذي قرأ قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [التوبة: ٣٤].

أما تجنب صحبة الحمقى والمفسدين، فقيمة نبيلةٌ. وقد أتى بها الشاعر في إطار الدعوة إلى الكد والجد؛ لأن صحبة الحمقى والمفسدين تصرِف الإنسان عن الطريق القويم، وتُلهيه عن الكسب والكد والكدح، ولذلك كان على الإنسان أن يختبر أصدقاءه، وأن يمتحنهم قبل أن يؤاخيهم؛ فقد قال الحكماء: «من لم يقدِّم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأُنس، أثمرت مودتُه ندماً». وقال بعضهم أيضاً: «لا تثق بالصديق قبل الخبرة». وقال بعضهم: «عداوة العاقل أقلُّ ضرراً من مودة الأحمق».

وقد بيَّن لنا الهديُ النبوي أن الصديق عنوان صديقه، فرُوي عنه ﷺ أنه قال: «المرء مرآة خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[1]. وقد مثَّل لنا ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك الذي نبتاع منه أو نشَمُّ منه ريحاً طيبة،

---

(١) رواه أبو داود والترمذي.

ومثَّل لنا الجليس السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابنا، وإما أن نشَمَّ منه ريحاً خبيثة[١].

وقد أكثر الشعراء من القول في هذا المعنى، فقال بعض الشعراء:

مجالسة السَّفيه سفاهُ رأيٍ
ومِنْ عقلٍ مجالسةُ الحكيمِ
فإنَّك والقرينَ معاً سواءٌ
كما قُدَّ الأديمُ من الأديمِ

وقال آخر:

فإذا ماكنت متَّخذاً خليلاً
فلا تَثِقَنْ بكلٍّ أخي إخاءِ
فإنْ خُيِّرتَ بينهم تَخَيَّرْ
لأهل العقل منهم والحياءِ
فإنَّ العقلَ ليس له إذا ما
تفاضلَتِ الفضائلُ مِنْ كِفاءِ

وقال آخر:

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه
فكلُّ قرينٍ بالمقارَنِ يَقْتَدي
إذا كنتَ في قومٍ فصاحبْ خِيارَهم
ولا تصحبِ الأردى فتردى مَعَ الرَّدي

---

(١) رواه البخاري.

وقال آخر:

لا تحمدنَّ امرأً حتى تجرِّبَه
ولا تذمَّنَّه مِنْ غيرِ تجريبِ
فحَمْدكُ المرءَ ما لم تَبْلُه خطأٌ
وذَمُّهُ بعد حمدٍ شرٌّ تكذيبِ

٤٥- بين تبذيرٍ وبُخلٍ رُتبَةٌ
وكلا هذين إنْ زادَ قَتَلْ

في هذا البيت دعوة من الشاعر إلى التوسُّط في الإنفاق؛ فعلى الإنسان أن يَلْزَم هذه الرتبة الوسط بين التبذير والبخل، فلا يسرف ويبسُط يده كلَّ البسط، ولا يبخل ويشحَّ بماله على نفسه، وكلا النقيضين مهلك؛ فالمسرف الذي ينفق المال فيما ينفع وفيما لا ينفع يهلك نفسه؛ لأنه سينتهي إلى الفقر وذُلِّ الحاجة، وكذلك فالبخيل الشحيح المقتِّر على نفسه يُهلك نفسه بالحرمان في الدنيا، وبالعذاب الذي ينتظره في الآخرة لقاءَ ما كنز من ذهب وفضة.

والشاعر في هذا البيت ناظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإلى قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان: ٦٧].

كذلك فهو ناظر إلى قوله ﷺ: «إياكم والشُّحَّ، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أنْ سفكوا دماءهم، واستحلُّوا محارمهم»[1]. وإلى

(١) رواه مسلم.

قوله ﷺ: «خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق»[1].

وقد يظن ظانٌّ أن التبذير هو السخاء والجود، وهو واهم في ذلك؛ لأن السخاء والجود هما عين الرتبة التي حدَّدها الشاعر، فالمال - كما يقول أبو حامد الغزالي -: «خُلِقَ لحكمة ومقصود، وهو إصلاحه لحاجات الخلق، فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حين يجب الإمساك تبذير، وبينهما وسط وهو المحمود. وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذا لم يأمر الرسول ﷺ إلا بالسخاء... فالجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض»[2].

وفي هذا المعنى يقول بعض الفلاسفة: إن الفضيلة وسط بين رذيلتين؛ فالجود - وهو فضيلة - وسط بين التبذير والشح، وكلاهما مرذولان، والشجاعة وسط بين التهوُّر والجُبن. وهكذا.

وهذه وإن كانت غيرَ مضطردةٍ، فهناك بعض الخصال لا وسط فيها؛ كالصدق والكذب، والأمانة والخيانة. إلا أنها تصدُق في كثير من الأحيان.

٤٦- لا تَخُضْ في سبٍّ ساداتٍ مَضَوْا

إنَّهم ليسُوا بأهلٍ للزَّلَلْ

في هذا البيت نهْيٌ عن الخوض في حق خيار الأمة، ويقصد بهم صحابة رسول الله ﷺ لأنهم - رضوان الله عليهم - صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا العمل الصالح للأمة الإسلامية، ولم يكونوا أصحابَ هوى فيما قدِمُوا عليه من عمل، وإنما اجتهدوا وتأولوا.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) إحياء علوم الدين جـ ١٠ ص٥١، ٥٢.

والخوض في شأن الصحابة رضوان الله عليهم بلاءٌ ابتُلي به العالم الإسلامي حين اضطربت الأهواء، وانقسم المسلمون فِرقاً متصارعةً متناحرةً، شايعت كل فرقة فريقاً من الصحابة، وعادت فريقاً آخر، وبلغ الأمر إلى الحد الذي كان يُسَبُّ فيه بعضُ الصحابة على المنابر.

وربما بقي لهذا البلاء ذيولٌ في عصر ابن الوردي؛ إذ كانت ما تزال هناك مجادلات بين أهل السنة وبعض الدوائر الشيعية، إلى جانب فرق أخرى كانت قد استقرت في بقاع من العالم الإسلامي.

ونحن المسلمين لا ندَّعي العصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، ولكن يجب ألا يغيب عنا أن صحابته رضوان الله عليهم كانوا من الفضائل في مرتقى درجاتها، وكلُّ ما نسب إليهم من أخبار تنقص من أقدارهم إنما كانت من اختراع قوى دخيلة مغرضة أرادت تفتيت وحدة العالم الإسلامي.

وعدالة الصحابة رضوان الله عليهم ثابتة معلومة بتعديل الله سبحانه وتعالى لهم، وإخباره من طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن؛ فمن ذلك قوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله سبحانه: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [التوبة: ١٠٠].

ووصف رسول الله ﷺ أصحابه، وأطنب في تعظيمهم.

وعنه ﷺ قوله: «لا تسبوا أصحابي. فوالّذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكُم مثل أحُد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصِيفَه»(١).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

والأحاديث في ذلك كثيرة(*).

٤٧- وتغـــافَلْ عـن أمـــورٍ إنَّـه

لـم يفُـــزْ بالحــمـــد إلا مَنْ غَــفَلْ

٤٨- ليس يخلُو المرءُ من ضِـدٍّ وإنْ

حــاول العــزلة في رأس الجَــبَلْ

٤٩- مِلْ عَنِ النَّمَّام واهجُـرْه فـمـا

بـلَّــغَ المـكــروهَ إلا مَــنْ نَــقَــلْ

٥٠- دارِ جــارَ الدارِ إن جـــارَ وإنْ

لم تجِـدْ صـبــراً فــمــا أحلَى النُّقَلْ

هذه الأبيات يجمعها نَسَقٌ فكري واحد؛ فالشاعر يعبِّر فيها عمَّا يمكن أن نسميَه آدابَ العِشرة.

وأول هذه الآداب - في نظر الشاعر - التغافل عن هفوات من نخالطهم من الصَّحْب والأصدقاء؛ فالذي يحاسب مخالطيه على كل صغيرة وكبيرة، والذي يعاتب على الدقيق والجليل من الأمور، لا يسلم له صديق، ولا يأنَس له معاشر.

ولا بد للإنسان من مخالطة الناس، ولا بد أن يتعامل مع من يوافقه ومع

(*) لعل من أنفس الكتب التي يقرؤها المسلم في هذا الصدد ليجنب نفسه الشبهة كتاب «العواصم من القواصم» للقاضي أبي بكر بن العربي.
وللإلمام المستفيض يمكن للقارئ أن يرجع إلى الفصل النفيس الذي عقده الإمام الحافظ المحدث أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، واعتمده شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني في مقدمة كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة».

من يخالفه، فلا يوجد ذلك الإنسان الذي تمكَّن من العيش وحيداً، حتى ولو حاول أن ينأى بنفسه عن الناس في قمة جبل. وطالما أن الأمر كذلك، فلا بد من الصبر على أخطاء الغير، ولا بد من المداراة، ولا بد من الإغضاء عن كثير من الأمور.

ولكي نعيش مع الناس، فلا بد أن نحسن الظن بهم، ولا نحمل لهم في القلب حقداً ولا ضغناً، وفي سبيل ذلك علينا ألا نسمع لذلك الذي يسعى بالنميمة، فإنه بنميمته يثير الضغائن، ويكدِّر صفو القلوب، ويفسد العشرة. ثم هو بعدُ قد لا يكون صادقاً، فأدنى إلى العقل أن نغلق هذا الباب، وأن نعتقد أن الذي يبلغ المكروه، ويوصل النفس له هو ناقله، وأن الذي ينِمُّ لنا ينم أيضاً علينا.

ومن آداب العشرة أيضاً: مداراةُ الجار، والصبر على أذاه إن كان سيِّئ العشرة، ومَن لم يستطع الصبر، فأفضل له أن ينتقل، ولا يمسَّ جارَه بأذى.

وهذه الآداب - في جملتها - هي ما ينبغي على الإنسان المسلم أن يتحلَّى به في مخالطته للناس. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؛ فقد كان ﷺ أحسنَ الناس عشرة لأهله وأصحابه، وأكثرَهم تغاضياً عن هفوات الناس، وأوسعَهم حِلماً، فما سُمع عنه ﷺ أنه عنَّف خادماً علىٰ فعل حتى ولو لم يرضَه، وكان ﷺ لا يزيده جهل الناس إلا حلماً؛ فرُوي أن غريماً تقاضاه بديْن فأغلظ عليه، فهمَّ به عمر بن الخطاب، فقال ﷺ: «مه يا عمر، كنتُ أحوجَ إلى أن تأمرني بالوفاء، وكان أحوجَ إلى أن تأمره بالصبر»[1].

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم ص٦٠.

وقمة الحلم أن نعامل من نكره معاملةً لينة، علّ هذه المعاملة اللينة تصلحه وتكفُّه عن شره؛ قال سبحانه: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وعلى حدِّ قول الشاعر:

ترَفَّق أيها المولى عليهم
فإنَّ الرفق بالجاني عِتابُ

أما النميمة، فهي منهيٌّ عنها بنصِّ القرآن، وقد صور لنا سبحانه الساعي بها والمصغي إليها بمن يأكل لحم أخيه الميت؛ فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وأمرنا سبحانه أن نتثبت من كلام الناقل قبل أن نصدِّقه ونتصرَّف على أساسه، وبخاصة إذا كان هذا الناقل نمَّاماً فاسقاً؛ إذ ربما جرَّنا تصديقُه إلى فعل ما نندم عليه، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ونهانا القرآن الكريم عن تصديق النمام، فقال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١١].

وأدَّب الرسول ﷺ بذلك صحابته، وعوَّدهم ألا ينقل أحدُهم عن أخيه شيئاً، فقال: «لا يُبلِّغني أحدٌ منكم عن أحد شيئاً؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[1]؛ فهو ﷺ يعلم ما تتركه هذه النميمة من وَغر الصدر وملْئِه بالشرور والمكاره.

---

(١) رواه أبو داود.

وأما الجِوار، فهو باب واسع. والجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أُخُوَّة الإسلام؛ قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه»[1]. وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يأمَنَ جارهُ بوائقَه».

وقيل له ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وتؤذي جيرانها، فقال ﷺ: «هي في النار»[2].

وحقُّ الجوار ليس في كف الأذى عن الجار فقط، بل هو أيضاً في احتمال أذاه، والرفق به، والسؤال عنه، وقد أجمل ﷺ حقَّ الجار في قوله: «أتدرون ما حقُّ الجار؟ إن استعان بك أعنْتَه، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عُدتَ عليه، وإن مرض عُدْتَه، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنَّأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستَعْلِ عليه بالبناء فتحجبَ عنه إلا بإذنه، ولا تُؤذه، وإذا اشتريت فاكهةً فأهْد له، فإن لم تفعل، فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدُك ليغيظَ بها ولدَه، ولا تُؤذِ بقَتارِ قِدْرك إلا أن تَغرف له منها». ثم قال: «أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده، لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله»[3].

ومن طريف ما يُحكى في هذا الصدد ما حُكِيَ عن جارِ الإمام أبي حنيفة؛ إذ كان هذا الجارُ يرجع آخر الليل ثملاً، ويرفع صوته بالغناء:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وابن عدي في الكامل.
وروي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ولكن ضعَّفه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء.

أضـاعـوني وأيَّ فـتى أضَـاعُـوا
لِـيـوم كـريـهـةٍ وسِـدَادِ ثَغْـرِ

وكان ذلك الجار يؤذي أبا حنيفة، ولكنه يصبر رعايةً لحق الجوار. وذاتَ ليلة افتقد أبو حنيفةَ جاره، فلم يسمع صوته، فسأل عنه، فعلم أن العَسَسَ اقتادوه إلى الحبس، فذهب وخلَّصه، وقال له: لكي تعلمَ أنَّا لم نضيِّعْك كما تدَّعي في غنائك.

وكان لتصرف أبي حنيفة أثره على خُلق جاره فانصلحت أحواله، وحَسُن سلوكه. وفي يوم عرض عليه بعضُ الناس شراء داره، فقوَّمها بثمن فرضه له، فقال: هذا ثمن داري، ولكن بكم تشتري جوار أبي حنيفة؟

وقد جاوز حُسن الجوار الآدميين، فأمرنا الإسلام بحُسن عشرة كلِّ ما له روح؛ فعمر يرى رجلاً يشدُّ شاةً من رجلها ليذبحَها، فقال له: ويلك قُدْها إلى الموت قوْداً جميلاً؛ انطلاقاً من قول النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحِدَّ أحدُكم شفرته، وليُرِحْ ذبيحته». رواه الترمذي والنسائي.

ويُروى عن بعض الصالحين أنه كانت في بيته فأرة، فقيل له: ائت لها بهِرٍّ، فقال: أخشى أن تفر من الهِرِّ إلى جاري، فتؤذيه، فيكون ذلك منافياً لحسن الجوار.

على أن المعاني التي دار حولها ابن الوردي في هذه الأبيات دار حولها عديدٌ من الشعراء في عصور مختلفة، وبخاصة الإغضاء عن هفوات الصديق، والتغافلُ عن زلاَّته.

قال النابغة:

ولستَ بمستبق أخاً لا تَلُمُّهُ
على شَعَثٍ أيّ الرجال المهذَّبُ

وقال بشار:

إذا كنت في كلِّ الأمور معاتباً
صديقَك لم تلْقَ الذي لا تعاتبُهْ
فعِشْ واحداً أوْ صِلْ أخاكَ فإنَّه
مقارفُ ذنب مرةً ومجانبُهْ

وقال بعض الشعراء:

سامح أخاك إذا أتاك بزَلَّةٍ
فخلُوصُ شيءٍ قلَّما يتمكَّنُ
في كلِّ شيء آفةٌ موجودةٌ
إن السِّراجَ على سناه يُدَخِّنُ

وقال آخر:

ولا تعاتب على نقصِ الطِّباع أخاً
فإنَّ بدرَ الدُّجى لم يُعْطَ تكميلا

ومن جميل ما قيل في أدب العشرة:

سأُلزم نفسي الصفح عن كلِّ مذنب
وإن كثُرت منه إليَّ الجرائمُ
فما الناسُ إلا واحدٌ مِنْ ثلاثةٍ
شريفٌ ومشروفٌ ومِثلٌ مقاومُ

فأما الذي فوقي فأعرف قدْرَه
وأتبع فيه الحقَّ والحقُّ لازمُ
وأما الذي دوني فأحلُم دائباً
أصونُ به عِرضي وإن لام لائمُ
وأما الذي مثلي فإن زلَّ أو هفا
تفضَّلتُ إن الفضلَ بالفخرِ حاكمُ

٥١- جانِبِ السلطانَ واحذرْ بطشَه
لا تعانِدْ مَنْ إذا قالَ فَعَلْ

٥٢- لا تَلِ الحكم وإن هُمْ سألوا
رغبةً فيك، وخالِفْ مَنْ عَذَلْ

٥٣- إنَّ نصفَ الناسِ أعداءٌ لمن
وَلِيَ الأحكَامَ، هذا إن عَدَلْ

٥٤- فهو كالمحبوس عن لَذَّاته
وكلا كفَّيه في الحشر تُغَلْ

٥٥- إن للنَّقص والاستثقال في
لفظةِ القاضي لَوَعظاً ومثلْ

٥٦- لا تساوي لذةُ الحكم بما
ذاقَهُ المرءُ إذا المرءُ انعزَلْ

٥٧- فالولاياتُ وإنْ طابت لمن
ذاقها فالسُّمُّ في ذاك العَسَلْ

٥٨- نَصَبُ المنصِب أوْهَى جَلَدي
وعنائي مِنْ مُداراة السّفل(١)

يبدي ابن الوردي في هذه الأبيات عزوفاً عن تولِّي المناصب الرسمية في الدولة، وبخاصة منصب القضاء، الذي كان يتولاه أمثالُه من العلماء أو أرباب العمائم، كما كانوا يسمَّوْن على ذلك العهد.

ويبدأ ابن الوردي داعياً إلى تجنب السلطان، والحذر من بطشه، وعدم معاندته؛ لأنه يملك السلطة، ويستطيع أن ينفذ بها ما يقول.

والطريق إلى تجنُّب السلطان - في نظر ابن الوردي - تتمثل في عدم تولي مناصب الحكم مهما ألَحَّ الراغبون في ذلك، ومهما لام اللائمون في تركْها والعزوف عنها.

ويسوِّغ ابن الوردي رأيه في العزوف عن مناصب الدولة - ويقصد القضاء؛ إذ هو المتاح إذ ذاك أمام العلماء - فيقول: إن من وَلِي الأحكام لا بد أن يكون نصفُ الناس له أعداءً، حتى وإن تحرَّى العدل؛ وذاك أن مَنْ يأتي إليه صنفان من الناس: سالب حق وصاحب حق، وهو بحكمه لصاحب الحق يعادي سالبَ الحق بما يستشعره هذا الأخير من ضَغينةٍ تجاهه.

ويأتي بمسوِّغ آخر، فيقول:

---

(١) عذل: لام. تغل: تقيد. والغل: طوق من حديد تُجمع به يد الجاني إلى عنقه.
النقص والاستثقال مصطلحان نحويان؛ فلفظة «القاضي» من الأسماء الناقصة؛ لأن آخرها ياء لازمة، والاسم الناقص لا تظهر على آخره علامتا الرفع والجر للاستثقال.
النصَب بفتح الصاد: العناء والتعب.

إن من يَلي الأحكامَ يحبس عن لذاته؛ لأنه ينشغل بمطالب الناس وأمورهم عن أموره ومطالبه، فضلاً عمَّا يستدعيه المنصب الرسمي من سلوك خاص وأُبهة، وقد لا يكون هو راغباً فيهما. هذا إلى جانب أنه قلَّ مَنْ يسلم من يلي القضاء. ورد في الحديث: «القُضاة ثلاثة، واحد في الجنة واثنان في النار، قاضٍ قضى بالحق وهو يعلم، فهو في الجنة، وقاضٍ قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار، وقاضٍ قضى بغير الحق فهو في النار»[1].

ويتأمل ابن الوردي، وهو يسوق مسوِّغاته في لفظة «القاضي»، فيرى أن فيها نقصاً واستثقالاً؛ إذ هي من الأسماء الناقصة التي لا تظهر على آخرها علامتا الرفع والجر كراهةَ الاستثقال، فيقول: إن في الخواص النحوية لهذه اللفظة من النقص والاستثقال وعظاً ومثلاً، وكأنه يرى أن ما في الاسم ينطبق على مسمَّاه، فكما أن في اللفظ نقصاً واستثقالاً، فكذلك منصب القاضي فيه نقص واستثقال.

ويمضي ابن الوردي، فيبين أن اللذة التي يشعر بها من يلي المنصب لا تساوي شيئاً إذا ما قورنت بالألم والخِزي اللذيْن يشعر بهما ساعةَ أن يُعزل منه.

وقد يطيب المنصب لإنسان، فيرى فيه الرفعة والجاه، ولكنه لا يشعر أن الأذى يتخفى فيما يشعر به من لذة، وأن الضرر يتلبَّس بما يراه من فائدة، كما يتلبس السم بالعسل. وابن الوردي يشير بذلك إلى أن صاحب هذا المنصب قد يقع في الجور وهو يظنه العدل، وقد يسيء وهو يظن أنه يُحسن

(١) أخرجه أبو داود.

صنعاً، فيقع بذلك في زمرة من ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا.

ويختتم ابن الوردي هذا المقطع بما يشير إلى تجربته الخاصة حين تولَّى القضاء، ولقي في ذلك من الهناء ما ذهب بصبره، ولقيَ العَنَتَ من مداراة سفلة القوم الذين يقولون بغير علم، وينتقصون من أقدار الناس على غير بيِّنة.

وليست هذه هي الأبيات الوحيدة في شعر ابن الوردي التي يزهد فيها في المنصب، ويؤْثر عليها الخمول، ولو كان ذاك لعددناه موقفاً عارضاً، أو خاطراً فكرياً طارئاً، ولكن هذا الموقف من المناصب، وبخاصة القضاء، يتردد في شعر ابن الوردي بصورة أو بأخرى، مما يجعلنا نعتقد أن المدة التي وَلِيَ فيها القضاء تركت له تجربة أليمة، جعلته يرفض المناصب جميعاً، وإن آلامها غُصَصٌ تشق القلوب، وأن ما يصيب المرءَ ساعة عزله من حزن أضعاف ما يُحِسُّ به من سرور ساعة أن يتقلد المنصب.

قل لمن سُرَّ بالولاية مهلاً
ذاك عيشٌ مُعَجَّلُ التنكيدِ

وتصدِّيك للعظائم صعبٌ
وهو أشْقَى لغِلِّ صدرِ الحقودِ

غُصَصُ هذه المناصبِ تُضْنِي
وتشقُّ القلوبَ قبل الجلودِ

تعبٌ كلُّها الحياة فما أعجبُ
إلا من راغبٍ في المزيدِ

إن حــزناً فـي ســاعــةِ العــزلِ

لأضعافُ سرورٍ في ساعةِ التقليدِ

ونشَمٌّ في هذه الأبيات ريح أبي العلاء المعري، وبخاصة في البيت الأخير الذي هو تحويرٌ لبيت أبي العلاء المعروف:

إن حزناً في ساعة الموت أضعا

فُ سرورٍ في ساعــة الميــلاد

فلعل ابن الوردي في موقفه هذا العازف عن المناصب كان يستعيد في ذهنه موقفَ أبي العلاء المعري من الناس والحياة حين اعتكف في منزله، وأغلق عليه بابه. ولا عجب في ذلك، فكلا الشاعرين معرِّيٌّ.

ومهما كان من أمر، فهذا هو ابن الوردي لا يفتأ يعلن سخطه على المنصب، فنراه في موضع آخر من ديوانه يندم على زمن مضى كان يظن فيه المناصب عزاً ورِفعةً، وما كان يدري أن الرفعة الحقيقية هي في تجنُّب المناصب، أو في حياة الخمول كما يقول:

أسَفِي كيف كنتُ أطلبُ عزّاً

بالولايات وهي عينُ الهـوانِ

كنت لا أعرف الخمولَ لجهلي

ليتني كنتُ خاملاً مِنْ زمانِ

وفي موضع ثالث نراه يسخر من هؤلاء الذين يسعوْن إلى مثل هذه المناصب، ويبين لهم سوء العاقبة في يوم يكون فيه الولدان شيباً.

تركتُ لكم عزَّ القضاء وجاهَه

وأبعدتُ عنه خائفاً أترقبُ

فقوموا على ساقَيْ حديدٍ وشَمِّرُوا
لنَيْلِ عُلاه واهجُروا النومَ واطلُبوا
ومِيلوا وجولوا واحكُموا وتخوَّلوا
وصولوا وطولوا وانبذوا الزهد واطلبوا
ستعلم نفسٌ أيَّ حِمْلٍ تحمَّلت
ليوم أسًى مِنْ هولِه الطفلُ أشْيَبُ

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تلميح إلى ما كان يمارسه مَنْ يَلِي هذه المناصبَ من ظلم وعسْف ونهب.

وفي موضع رابع نراه يلمح إلى أن هذه المناصب لا يرضى بها إلا الجُهَّال والحمقى، الذين يبيعون دينهم بدنياهم، ويشترون وجاهةً زائفة باقتراف الآثام؛ يقول:

ألا يادهرُ دعْني في خُمولي
فليس لِيَ النباهةُ والنزاهَهْ
عليك بكلِّ ذي حمْقٍ وجهلٍ
بعرض الشخص منهم ألف عاهَهْ
إذا كانت وجاهتُهم بإثمٍ
ففي ترْكِ الوجاهةِ لي وجاهَهْ

ونراه يشير من طرْف خفيٍّ إلى ما كان يُبذل في شراء هذه المناصب من رِشاً، فيولَّى من يعطي، ويعزل من يبخل؛ فيقول:

عزلوك لَمَّا قلتَ ما
أعْطِي، وولَّوْا مَنْ بَذَلْ

أوَمَا علمتَ بأن «ما»
حرفٌ يكفُّ عن العملِ[1]

ويصور لنا ابن الوردي أيضاً في لقطة خاطفة شأنَ هذه المناصب، وعدمَ استقرار من يليها، فما إن يُولَّى حتى يُعزل، ولذلك شغل من يلي هذه المناصب بالنهب، لا يلوي فيه ولا يترفَّق، يقول:

وَلِي القضاءَ وصار لا
يلوي ولا يترفَّقُ
ها قد تفرَّق شملُه
إنَّ القضاء مفرِّقُ

ويبين لنا ابن الوردي أخيراً أن جاه العلم هو الجاه، وأن رِفعةَ العلم خيرٌ من رِفعة المناصب، وأنه أولى بالإنسان أن ينشغل بنافع العلوم عن زائف المناصب؛ يقول:

خلعتُ ثوب القضاءِ طوْعاً
هذا وما كنتُ بالظَّلُومِ
إن زال جاهُ القضاءِ عنِّي
يكفينيَ الجاهُ بالعُلومِ

ويقول في بعض خطابه لصديقٍ له من العلماء:

---

(١) كف العمل: هذا مصطلح نحوي؛ إذ إن «ما» حين تتصل بإن أو بأحد من أخواتها تكفها عن العمل، ولكن ابن الوردي يوظف المصطلح على سبيل التورية؛ فيقول: إن «ما» التي سبقت «أعطى» كفت صاحبها عن العمل؛ أي: منعته من تولي عمل القضاء، إشارة إلى أن المناصب لا تُنال إلا بالبذل.

شُغِلتُ بحب العلم عن رفعةِ القَضَا
أيولى على الأصداف مَنْ قصدُهُ الدُّرُّ
تعجَّبَ قومٌ كيف أترُكُ منصبي
وأرفضُهُ عمداً وما أنا مضطرُ
أرى العلمَ أعلى رُتبةً لي مِنَ القضا
ولو لم يكن إلا فوائدُك الزُّهرُ

وابن الوردي في موقفه هذا من القضاء، وإن كان يعكس تجربة شخصية، فإنه في الوقت نفسه يعكس صورة العصر الذي عاش فيه، والذي دأب حكامُه من سلاطين المماليك وأعوانهم أن يتدخلوا في أمور القضاء، ويُمْلوا على القُضاة أحكاماً يريدونها. والقاضي في ذلك بين اثنتين: إما أن يُرضيَ الوزير أو السلطان، وفي ذلك ضياع دينه، وإما أن يرضي الحقَّ والعدل، وفي ذلك ضياع دنياه.

ونسوق هنا مثلاً مما كان يجري؛ فقد كان «تقي الدين بن بنت الأعز» قاضياً للقضاة، فأراد منه «ابن السلعوس» – وهو الوزير إذ ذاك – أن يعين أحد أتباعه، فرفض، فكان جزاؤه العزل وبث الشائعات التي تتهمه في عِرضه وفي دينه.

وأصبح من المألوف في ذلك العصر أن يُعزلَ قاضٍ ويولَّى آخرُ، لا لشيء، إلا أن المعزول كان نزيهاً نقيَّ العِرض، لا يمالئ السلطة، وكان من جراء ذلك أنْ ساءَ ظن الناس بهذه المناصب ومن يليها.

وكثُرت الدعاوى إلى ترْك هذه المناصب، وإيثار الخمول، فيقول الإدفوي، وهو من شعراء العصر:

لا تـلـيَـنَّ الدهـرَ أمــــرَ الورى
واقنَعْ مِنَ الرِّزق ببــعض النوالْ
لو لم يكن في الحشر فيه سوى
طول وُقـوفِ المرءِ عند السـؤالْ
لكان أمـراً مـؤلماً مـحـزناً
يُلهـيك عن أهلٍ وجـاهٍ ومـالْ

ويرثي برهان الدين القيراطي شيخُ الشافعية، فيرى أن محامده الكبرى هجرُه للمناصب، وتنزُّهه عنها، وتعفُّفه عما تبديه من زُخرف خادع وبهرج زائف؛ يقول:

لقد هجرت صادُ المناصب نفَسه
كما هجرت راءُ الهجا نفسَ واصلِ[1]
تنزَّه عنهـا وهي لا تستـفـزُّه
بزخرفِـها الخـدَّاعِ خـدع المخاتلِ
وما مَـدَّ عيناً نحـوَها إذ تبرَّجت
تبـرُّجَ حسناءِ الحلى في الغلائلِ

غير أننا، وإن كنا نلتمس لابن الوردي في موقفه هذا ما يسوِّغه من ظروف عصره، فإننا لا نميل إلى موافقته على رأيه في العزوف عن المناصب وإيثار عيش الخمول؛ إذ لو صنع كلُّ عالم هذا الصنيعَ، لفسدت أمورُ

---

(١) المناصب من دون الصاد لا معنى لها؛ إذن فهجر صاد المناصب معناه هجر المناصب. أما «واصل»، فهو واصل بين عطاء زعيم المعتزلة، وكان ألثغَ في حرف الراء، فكان يتجنَّب في حديثه كل كلمة فيها «راء». وأظهر في ذلك براعة شديدة.

المسلمين، ولتُركت أمورهم للجُهَّال.

ونحن نرى أن العلم له حقوق على صاحبه، وأول هذه الحقوق: ألا يبخل به، وألا يضنَّ على الناس بنفعه، وإيثارُ الخمول فيه ضَنٌّ بالعلم.

حقيقة أن صاحب العلم قد يُؤذَى، لكن واجب العلم يلزمه الصبر على الأذى في سبيل النفع العام.

كذلك فنحن نرى أن صاحب العلم عليه أن يتصدى للعمل العام، ويقدم نفسه إذا آنَسَ فيها الكفاءة، ولنا أسوةٌ بيوسفَ الصديق عليه السلام؛ إذ قال للملك: ﴿**اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥]؛ فلقد قدَّم نفسه وزكَّاها حين رأى فيها القدرة والكفاءة، أفلا نسأل: ماذا لو أنه عليه السلام آثَرَ الزهد والخمول؟ وماذا كان المصير لشعب كانت نجاتُه على يديه؟

٥٩- قصِّر الآمالَ في الدنيا تَفُزْ
فدليلُ العقلِ تقصيرُ الأملْ
٦٠- إنَّ مَنْ يطلبهُ الموتُ على
غِرَّةٍ منه جديرٌ بالوَجَل(١)

في هذين البيتين يدعو الشاعر إلى تقصيرِ الأمل في الدنيا. وتقصيرُ الأمل في الدنيا دليل على كمال العقل؛ لأن العاقل لا يفسح المجال لآماله في الدنيا وهو يرى أن الموت يترصَّده، فأوْلى به أن يُعِدَّ نفسه للرحيل المتوقَّع، وأوْلى به أن يتزود له، وأن يخاف ما بعده.

(١) جدير بالشيء: حقيق به، الوجل: الخوف.

والبيتان – كما ترى – يتَّسقان مع ما سبقهما من أبيات، دعا فيها الشاعر إلى الزهد في المناصب وإيثار حياة الخمول، وكأن الشاعر بإيراده هذين البيتين يريد أن يبيِّن لنا أن الدنيا أهونُ من أن نشغلَ فيها أنفسنا بالصراع على منصب، أو بالجري وراء بارق من أملها خداع، لأنها دار فناء لا بقاء.

ولعل هذه الفكرة قد عبَّر عنها الشاعر بصورة أخرى في مطلع القصيدة حين تحدث عن مصارع نمرود وكنعان وفرعون، ولكنه رأى هنا أن يؤكد جانباً من الفكرة يتصل بما آثرهَ من مسلك زاهد وذاك هو تقصير الأمل.

ولعل من جميل ما قيل في هذا المعنى قولُ الحريري في إحدى مقاماته:

تَبّاً لطالب دنيا
ثنى إليها انصبابَهْ
ما يستفيقُ غراماً
بها وفرطَ صَبَابَهْ
ولو دَرَى لكفاه
مِمَّا يروم صُبَابَهْ(١)

ويقول أيضاً:

يا خاطبَ الدنيا الدنيَّة إنها
شَرَكُ الرَّدى وقرارةُ الأكدارِ
دارٌ متى ما أضحكت في يومِها
أبكت غداً، بُعداً لها مِنْ دارِ

(١) الصُّبابة بضم الصاد: البقية اليسيرة.

وقوله أيضاً:

وقعُ الشوائبِ شيَّبْ
والدهر بالناسِ قُلَّبْ

إن دان يوماً لشخصٍ
ففي غدٍ يَتَغَلَّبْ

فلا تثِقْ بوميضٍ
مِنْ برقِه فهو خُلَّبْ[1]

٦١- غِبْ وزُرْ غِبًّاً تزِدْ حبًّاً فمَنْ
أكثرَ التَّرْدَادَ أضناه المَلَلْ[2]

في هذا البيت يدعو الشاعر إلى إقلال زيارة من نُحِب؛ لأن كثرة الترداد عليه يوجد الملل والسأم الذي يضني الزائر، وهذا البيت في معنى الخبر المأثور «زر غباً تزدد حباً»[3].

وقال بعض الحكماء: «الإقلال من الزيارة زيادة»؛ أي: زيادة في المودة.

وفي هذا المعنى يقول بعض الشعراء:

---

(١) دان: خضع، البرق الخُلَّب: الذي لا يطمع بالمطر، ولا مطر وراءه.

(٢) زر غباً: أي زر يوماً وامتنع عن الزيارة يوماً، وأصل الغِبِّ: ورود الماء يوماً وعدم وروده في اليوم التالي.

(٣) الخبر أورده البزار في مسنده عن أبي هريرة، وقال البزار عَقِبَه: لا نعلم فيه حديثاً صحيحاً.

وقال ابن طاهر: رواه ابن عدي في أربعة عشر موضعاً من «كامله»، وأعلَّها كلها، ورواه البيهقي في «الشعب» والطبراني في «الكبير». قال البيهقي فيه طلحة بن عبيد، غير قوي، وقد روي بأسانيد هذه أمثلها.

عليك بإقلال الزيارة إنها

إذا كثُرت صارت إلى الهَجرِ مسلكا

ألم تر أنَّ القَطْرَ يُسْأمُ دائباً

ويُسْألُ بالأيدي إذا هو أمسكا

فالشاعر هنا يرى أن الزيارة إذا كثُرت تؤدي إلى الهجر. ويمثّل لنا كثرة الزيارة بالمطر الدائب الذي يسأمه الناس لكثرته. أما قلة الزيارة، فهي تأتي على شوق وترقُّب كما يسقط المطر بعد انقطاعه، وبعد شكوى الناس من قلته، حيث يرفعون أيديَهم إلى السماء طلباً للاستسقاء.

٦٢- خذ بحدِّ السيف واترك غِمْدَه

واعتبِرْ فضل الفتى دون الحُلَلْ

٦٣- لا يضرُّ الفضلَ إقلالٌ كما

لا يضرُّ الشمسَ إطباقُ الطَّفَلْ(١)

يقول الشاعر: عليك أن تحكم على السيف برهافة حدِّه، لا بجمال غِمده، فلا قيمةَ لسيف مثلم في غِمدٍ مرصَّع بالجواهر، وكذلك الشأن في الناس: علينا أن ننظر إلى فضائلهم، لا إلى ما عليهم من الثياب؛ فالناس بالمخبَر لا بالمظهر، ولا يضر الإنسانَ الفاضلَ، ولا يقلل من شأنه ما هو عليه من فقر، كما أنه لا يضر الشمس ما يطبق عليها من ظُلمةٍ في وقت الغروب.

وفي هذا المعنى يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) الحلل: الثياب، الطَّفَل: الظُّلمة التي تغشى الشمس أثناء الغروب.

ويقول المصطفى ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[١].

ويقول ﷺ: «ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغِنى غِنى النفس»[٢].

ومن قبل ابن الوردي عاب المتنبي على من يحكم على الناس بمظهرهم، ونعتَه بالجهل، بينما رأى أن العاقل من يحكم على الشخص بما فيه من فضائلَ؛ وذلك إذ يقول:

يحب العاقلون على التَّصافي
وحُبُّ الجاهلين على الوَسَام

والوسام: هو حسن المنظر.

وشبيه بقول ابن الوردي قولُ الحريري في إحدى مقاماته:

وفضيلةُ الدينار يظهرُ سرُّها
في سَكِّه لا في ملاحةِ نقشِه
وإذا الفتى لم يَغْشَ عاراً لم تكن
أسمالُه إلا مَراقِيَ عرشِه
ما إن يضر العَضْبَ كونُ قُرابه
خلَقاً، ولا البازي حقارةُ عُشِّه[٣]

وفي هذا المعنى أيضاً يقول الشاعر:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري.

(٣) الأسمال: الثياب البالية، العضْب: السيف القاطع، القُراب: الغِمد، الخَلَق: البالي.

لا تحـــقِـــرِ المرءَ إنْ رأيتَ به

دمـــامـــةً أو رثاثَةَ الـحُـلَلِ

فـالنحلُ مَعْ ضـعـفِـه وقِلَّتِـه

يميـــرُ كلَّ الأنامِ بـالعـــسَلِ

وفي هذا أيضاً يقول البارودي:

فما الفقر إن لم يدنِّسِ العرضُ فاضحٌ

ولا المالُ إن لـم يَشْـرُف المرءُ سـاترُ

إذا ما ذُباب السيف لم يَكُ ماضياً

فحلْيَتُه وصمٌ لدى الحرب ظاهرُ(١)

فالفقر لا يفضح الإنسان طالما كان عرضُه نقياً، والمال لا يستره إذا كان غيرَ شريف، فالمال للإنسان كالحِلْية للسيف، وإذا لم يكن السيف قاطعاً، فإن حِليته - مهما غالى فيها المغالي - لا قيمة لها، بل إنها تكون مدعاةً للسخرية، ووصمةَ عار لصاحبها وقت الحرب.

وكل هؤلاء الشعراء - بما فيهم شاعرنا ابن الوردي - أخذوا من قول السموأل بن عادياء الشاعر الجاهلي:

إذا المرءُ لم يدنِّس مِنَ اللؤم عِرضَه

فكلُّ رداءٍ يرتديه جـمـيـلُ

٦٤- حـبُّك الأوطانَ عـجـزٌ ظاهرٌ

فـاغـتـرِبْ تَلْقَ عَنِ الأهل البَـدَلْ

(١) ذُباب السيف: حدُّه، وصْم: عيب وعار.

٦٥- فبمُكثِ الماء يبقَى آسناً
وسُرى البدرِ به البدرُ اكتَمَلْ

يغري الشاعر في هذين البيتين بالترحيل والسفر، ويرى أن خلود الإنسان إلى مكان بعينه لون من العجز، وأن على الإنسان أن يغترب، فسيجد بسفره عِوضاً عمَّن يفارق، وأهلاً بدلاً من أهله.

ويمضي الشاعر محبباً السفر، فيقول: إن الماء إذا لم يجْرِ خبُث وتغير طعمُه، ونتنت رائحته، وإن البدر إذا لم يكن يسري في كل ليلة ما اكتمل ولا صار بدراً.

ونحن مع الشاعر فيما ذهب إليه من الترغيب في السفر والرحلة، فلا شك أن فيهما منافعَ كثيرةً وفوائدَ جمةً؛ فالأسفار تزيد من خبرة الإنسان وتجاربه، وتفتح أمامه آفاقاً جديدة من المعرفة، فضلاً عن أنه يجد فيها الرزق إذا ضاق رزقه بأرضه، وتخلص من الهوان إذا كان معرَّضاً له في بلده، ويتعرف إلى أصدقاء جُدُدٍ يكونون له عِوضاً عن الأهل.

وقد أمرنا سبحانه أن نرحل إذا لقينا في بلد نقيم فيه الهوان والعَنَت، وأن ننجُوَ بديننا إذا تعرَّضنا للفتنة، بل إنه سبحانه وبَّخَ القاعدين المقيمين على الهوان، وتوعَّد الذي يفرِّط في أمر دينه متعللاً بالضعف وعدم القدرة على الهجرة؛ يقول سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ**

أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠].

ومع ذلك، فإننا لسنا مع قول الشاعر في أن: «حب الأوطان عجز» فحب الأوطان غريزة مركوزة في طبع الإنسان، وقد كان الرسول ﷺ يأسى لفراقه مكةَ على ما لقي فيها هو وصحبُه من العَنَت والإيذاء، وكان ﷺ يقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت»[١].

وقد ظل أصحاب الرسول ﷺ بعد الهجرة وقلوبهم معلقة بمكة، فكان بلال رضي الله عنه يرفع صوته مردِّداً الشعر الذي يُظهر حنينَه إلى بقاعٍ معينةٍ بمكة، فكان مما يردد:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
بوادٍ وحولي إذخِرٌ وجليلُ
وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مَجنَّة
وهل يبدُوَنْ لي شامةٌ وطَفِيلُ

فهل نعدُّ ذلك عجزاً؟

ثم إن حب الأوطان شيء وحب الترحُّل والسفر شيء آخر، ولا يتناقض هذا مع ذاك، فقد يرحل الإنسان عن وطنه وهو المحبُّ له، وقد ينأى عنه وقلبه معلَّق به؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن ينسى مدارج طفولته ومرابع صباه. وصدق ابنُ الرومي إذ يقول:

وحَبَّبَ أوطانَ الرجال إليهم
مآربُ قَضَّاها الشبابُ هنالكا

---

(١) رواه الترمذي.

وعلى أيٍّ، فما نظن أن الشاعر قصد بحب الأوطان إلا التعلُّق بالمكان والخلود إلى الإقامة، والعزوف عن المغامرة.

وقد أكثر الشعراء من القول فيما دعا إليه ابن الوردي من السفر والترحل، ولعل من أجمل ما قيل في ذلك: أبيات لشاعر سكندري من شعراء القرن السادس الهجري، هو ابن قلاقس، وقد عُرف بكثرة رحلاته وأسفاره، يقول:

سافر إذا ما شئت قدرا
سارَ الهلالُ فصار بدرا
وبنقلَةِ الدُّرَرِ النقيّة
بُدِّلَتْ بالبحر نَحْرَا
والماء يعذُب ما جرى
طعماً، ويخبُث ما استقَرَّا

ولعلنا نلمح اتفاقاً في بعض الصور بين أبيات ابن الوردي وأبيات ابن قلاقس. وفي هذا المعنى يقول ابن صردر:

قَلْقِلْ ركابك في الفلا
ودع الغواني للقصور
لولا التنقُّلُ ما ارتقَتْ
درُّ البحور إلى النحور[1]

ويقول بعض الشعراء:

(١) الفلا: الصحراء، وقلقلة الركاب: حركته أثناء السفر.

قم فاغترب في البلاد مجتهداً

فمَنْ ثوى في مكانه هانا

كبَيْدقٍ لا يزالُ محتقَراً

حتى إذا سار صار مِهْرانا

فالشاعر يرى أن طول الإقامة في مكان تجعل الإنسان يهُون على أهله، فإذا رحل لقي العز والرفعة. ويمثل لذلك بصورة طريفة؛ هي صورة بيدق الشطرنج الذي إذا انتقل إلى آخرِ الرقعة ترقَّى إلى حجر أكبر، مثل الوزير أو ما شابهه.

ويقول الحريري:

واعلم بأن الحُرَّ في

أوطانه يلقَى الغَبَنْ

كالدُّرِّ في الأصداف يُستَّزْ

رَى ويُبْخَسُ في الثَّمَنْ[1]

ويقول الطغرائي:

إن العُلا حدثتني وهي صادقةٌ

فيما تُحدِّث أن العزَّ في النُّقَلِ

لو أنه كان في المأوى بُلوغُ مُنًى

لم تبرَحِ الشمسُ يوماً دارَةَ الحَمَلِ

وهذا يذكِّر بقول أبي تمام:

(١) يستزرى: يحتقر.

وطولُ مُـقَـامِ المرءِ في الحيِّ مُـخْلِقٌ
لديبَـاجَـتَـيْـه فـاغـتـرِبْ تَتَـجَـدَّدِ
فإني رأيتُ الـشـمسَ زِيدَت مـحبةً
إلى الناسِ أنْ ليست عليهم بسرمَدِ(1)

وعلى ما في الأسفارِ من فوائدَ، ففيها أيضاً مشقةٌ، ولكن الشعراء نظروا إلى هذه المشقة نظرةَ حُبٍّ؛ لأنها سبيل بلوغ الأمل، ولذلك يقول الشاعر لمن تحاول أن تثنيه عن السفر وتخوِّفه من المشاقِّ:

ذريني أنَـلْ مـا لا يُنال مِنَ العُـلا
فصعب العُلا في الصعب والسُّهل في السهلِ
تُريـدينَ إدراكَ المعـالي رخـيـصـةً
ولا بدَّ دون الـشـهـد مِنْ إبرِ الـنحلِ

٦٦- أيّهـا العـائبُ قـولي عـبـثـاً
إنَّ طِيبَ الـورْدِ مُـؤْذٍ بـالجُـعَلْ
٦٧- عَدِّ عن أسهم لفظي واستَتِرْ
لا يصـيـبنَّك سـهـمٌ من ثُعَلْ
٦٨- لا يغـرَّنَّك لِينٌ مِنْ فـتًى
إن للحـيَّـاتِ لِيناً يُعـتـزَلْ
٦٩- أنـا مـثلُ الماءِ سـهلٌ سـائـغٌ
ومـتى سُـخِّنَ آذى وقَـتَلْ

---

(١) سرمد: دائمة الشروق.

٧٠- أنا كالخَيْزور صعبٌ كسرُهُ

وهو لَيْنٌ كيفما شئْتَ انفتَلْ

٧١- غيرَ أنّي في زمانٍ مَنْ يكُنْ

فيه ذا مالٍ هو المولى الأجَلْ

٧٢- واجبٌ عند الورى إكرامُهُ

وقليلُ المالِ فيهم يُسْتَقَلْ

٧٣- كلُّ أهلِ العصرِ غُمْرٌ وأنا

منهم فاترك تفاصيل الجُمَلْ[1]

هذا مقطع يتمثل فيه الاعتدادُ بالنفس والثقةُ بها كما يتمثل فيه التواضعُ وعدم الرغبة في التفاخر.

وفي بداية هذا المقطع يتَّجه ابن الوردي إلى هؤلاء الذين يعيبون قوله، وينتقدون أدبه، فيبين لهم أن انتقاداتهم تدلُّ على خُبث نفوسهم التي تتأذى بالقول الجميل كما يتأذى الجُعَل - وهو تلك الحشرة المنتنة - بالرائحة الزكية، ولعل ابن الوردي في ذلك يقترب من قول المتنبي:

ومَن يَكُ ذا فمٍ مُرٌّ مريضٍ

يجدْ مُراً به الماءَ الزُّلالا

(١) الجُعل: حشرة من حشرات الأرض منتنة الريح، وتتأذى من كل رائحة زكية، ثُعَل: بطن من بطون قبيلة عُرف رجاله بحِذْق الرمي، وضُرب بهم المثل فيه، الخيزور: الخيزران، وهو عود لين صعْب الكسر. الغَمْر: من لم يجرِّب الأمور، ويوصف به كلُّ من لا خيرَ فيه في عقل أو رأي أو عمل.

ومن قوله:

بذي الغباوة مِنْ إنشادها ضَرَرُ
كما تضرُّ رياحُ الوردِ بالجُعَلِ

ومن قول البوصيري:

قد تنكرُ العينُ ضَوْءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ
ويُنكرُ الفمُ طعمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ

ويتجه ابن الوردي بعد ذلك متوعداً لهذا الذي ينتقده ويعيب قوله، فيقول له: أولى بك أن تتنحى وتبتعد عن قولي وتستتر، خشية أن يصيبَك سهمٌ مِنْ سهامه القاتلة؛ فإن سهام قولي صائبة المرمى كسهام بني ثُعَل، أولئك الذين عُرفوا بحِذْقهم في الرمي، وابن الوردي - كما نرى - هنا يلمح بمقدرته على القول الجارح.

ويمضي ابن الوردي، فيحذر خصمه من الاغترار بالمظهر اللين، فقد يُخفي اللِّين وراءه الموتَ الفاتك؛ فالحية ناعمة الملمس، لينة المجَسِّ، ولكنها ينبغي أن تُعتزل لِمَا وراء النعومة اللينة من لدْغ فاتك، وكأن ابن الوردي في هذا أيضاً يعيد علينا في صورة جديدة قول المتنبي محذِّراً خصومه:

وجاهلٍ غرَّه مِنْ جهله ضحِكي
حتى أتته يدٌ فَرَّاسَةٌ وَفَمُ

إذا رأيتَ نُيوبَ الليثِ بارزةً
فلا تظنَّنَّ أن الليثَ يبتسمُ

ويبين ابن الوردي - بعد ذلك - أنه سَمْحُ المعاشرة، إلا إذا أُوذي، فإنه ينقلب إلى إنسان عنيف المراس؛ فهو كالماء سهلٌ سائغ شرابُه، ولكنه إذا

سُخِّنَ قتل، وهو كعود الخيزران، لدْنٌ طريٌّ، ومع ذلك يستعصي على من أراد كسرَه. وابن الوردي في هذا القول يذكِّرنا بقول عنترة:

أثْنِي عليَّ بما علمتِ فإنَّني
سَهْلٌ مخالقتي إذا لم أُظلَمِ
فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْمِيَ باسلٌ
مُرٌّ مذاقَتُه كطعم العلقَمِ[1]

ولعله أيضاً يماثل قول بعض الشعراء:

ألِينُ لمن كان لي ليِّناً
وأنِّي على كلِّ صعبٍ شديدْ
كذا الماسُ يُعلمُ فيه الرصاصُ
على أنه عامل في الحديدْ

ويعزو ابن الوردي في النهاية عيب العائبين وشنآن الشانئين إلى فساد الزمن وأهله، فهو زمان لم يعدْ يقدِّم إلا صاحبَ المال، فهو فيه السيد المَهيب، الذي يجب على الجميع إجلالُه وإكرامه، أمَّا مَنْ قلَّ مالهُ، فليس له نصيب من احترام أهله، فهم يزدرونه ويقلِّلون من شأنه.

ويأتي البيت الأخير شهادةً دامغةً من ابن الوردي على فساد عصره، فهو عصرٌ كلُّ مَنْ فيه لا غَناء فيه؛ إذ هو غمْرٌ قليل التجريب، لا عقلَ له ولا رأي. ولا يستثني الشاعر من أهل عصره أحداً حتى نفسه.

وقد نعجب من أن الشاعر قد أدخل نفسه في زمرة أهل عصره، مع أنه

(١) مخالقتي: معاشرتي.

منذ هنيهة كان يقول: أنا وأنا، ولكن علينا أن نفهم أن الشاعر ما قصد بذلك إلا بيانَ استَشراء الفساد، وإحساسه بالعجز عن الإصلاح، وذهاب مواعظه سدى، فوصَمَ نفسَه أيضاً بأنه من جملة الغمْر، وهو بذلك يبيِّن حيرتَه، ويعترف بضعفه أمام التيار الجارف.

رحم الله ابن الوردي، فما كان غمراً، وإنما كان عَلَماً من أعلام عصره، وعاملاً أدى رسالتَه، ونفع ما استطاع بعلمه.

ويختم ابن الوردي منظومته بأبيات يزينها بالصلاة على رسول الله ﷺ والترضي على صحابته الكرام، حيث يقول:

٧٤- وصـــلاة الله ربِّي كلَّمـــا

طلعَ الشـــمس نهـــاراً أو أفلْ

٧٥- للذي حـــاز العُلى من هاشمٍ

أحـــمـــدَ المختـــارِ مَنْ ســـادَ الأُوَل

٧٦- وعلى آلٍ وصـــحبٍ ســـادةٍ

ليس فـــيـــهم عـــاجـــزٌ إلا بَطَلْ

المصادر والمراجع

أولاً:

- القرآن الكريم.
- صحيح البخاري.

ثانياً:

- اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دكتور محمد مصطفى هدارة، ط دار المعرفة الجامعية.
- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ط لجنة نشر الثقافة الإسلامية، ١٣٥٦هـ.
- أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي الماوردي، ط دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعلي بن محمد بن عبدالكريم الجزري، المعروف بابن الأثير.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني.
- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، للشيخ محمد راغب الطباخ.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، ط المكتبة القيمة.
- الأمالي، لأبي علي القالي، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور، لابن إياس، ط الشعب، ١٩٦٠م.
- البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، للدكتور أحمد عبدالرازق، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط البابي الحلبي.
- تاريخ الدعوة إلى العامية، للدكتورة نفوسة زكريا، ط دار المعارف بالقاهرة.
- الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن علي، المعروف بابن حجر العسقلاني، ط حيدر أباد، ١٣٤٩هـ.
- ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، ط دار المعارف.
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح البرقوقي، ط دار الكتاب العربي.
- ديوان برهان الدين القيراطي (مطلع النيرين)، مخطوط بدار الكتب، تحت رقم ٥٢٩ شعر.
- ديوان حافظ إبراهيم، ط وزارة المعارف المصرية، ١٩٣٧م.
- ديوان زين الدين عمر بن الوردي ورسائله، ط الجوائب، ١٣٠٠هـ.
- ديوان محمود سامي البارودي، ط المطبعة الأميرية، ١٣٧٣هـ.
- روض الآداب، شهاب الدين الحجازي، مخطوط بمكتبة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، تحت رقم ٢٧٨١م.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن قيم الجوزية، ط المطبعة المصرية، ١٣٧٩هـ.
- الشوقيات: أحمد شوقي، ط دار الكتب المصرية.
- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، ط المطبعة الحسينية.
- عيون الأخبار، لابن قتيبة، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- كتاب الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، ط دار الدعوة.

- المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، دكتور فوزي محمد أمين، ط دار المعارف.
- معيد النعم ومبيد النقم، للإمام تاج الدين عبدالوهاب السبكي، تحقيق: النجار وشلبي وأبي العيون، ط دار الكتاب العربي، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.
- مغاني المعاني لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: الدكتور محمد زغلول سلام، ط الإسكندرية، ١٩٨٧م.
- الممتع في صنعة الشعر لعبدالكريم النهشلي القيرواني، تحقيق: الدكتور محمد زغلول سلام، ط الإسكندرية، ١٩٨٠م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي الأتابكي، ط وزارة الثقافة المصرية.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
- يتيمة الدهر، للثعالبي، ط دار الكتب العلمية، بيروت.



مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية



ردمك: ٤-٤٨-٦٧٧-٩٩٦٠-٩٧٨